

روايات مصرية للجيب
46
فانتازيا
د. أحمد خالد توفيق
الحالم الأخير

إنها (فانتازيـا) حيث القواعد الوحيدة للعبـة هـى : لا قواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيـال هـى : لا حدود ..

إن جرس المحطة يدق ، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار .. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحـــاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى ..

١ ـ فلنتذكر !

نتيجة تلك القراءات السياسية المتعددة فى الفترة الأخيرة ، وجدت (عبير) نفسها تحمل حملاً إلى عوالم (تشى جيفارا) .. رمز الثورة فى القرن العشرين ..

إنها فى العراق .. فى تلك الفترة الصاخبة من تاريخه حيث تهدر المدرعات الأمريكية فى شوارعه ، توطنة لأن تنفجر بعبوة ناسفة وضعتها المقاومة ..

تجد نفسها ضائعة كالقطة الصغيرة وسط السيارات المسرعة ، لولا أنها تقابل ذلك الثائر الملثم المصاب بالربو الذى يطلق عليه رجاله (سى عمارة) ، وهو اسم بدا لها غريبًا إن لم يكن سخيفًا ..

ثمّة أسرار عجيبة تحيط بهذا السى عمارة .. إنه ملتح يفرط فى تدخين السيجار ويتكلم بلغة أقل ما يقال عنها إنها عتيقة .. لغة الستينات الثورية ذات المذاق الاشتراكى المميز ، دعك من اللكنة نفسها التى تفوح برائحة أسبانية لا شك فيها ..

إن (عبير) نفسها لم تعد (عبير) .. إنها صحفية أرجنتينية شابة وجدت نفسها وسط هذه الملحمة ، ووسط الدخان والنيران والبارود .. تقع فى يد رجال المقاومة ، لكن سى عمارة يقرر تركها لسبب واضح هو أنها أرجنتينية .. الرجال يثرثرون أحيانًا أنه من أصل أرجنتينى هو الآخر .. تكتشف أن هذا السى عمارة يمارس تقنيات حربية غربية لكنها فعالة : تلغيم جثث القتلى .. قتل الأسرى الأمريكيين .. رقصة الموت .. استخدام الألغام تحت الأرض وتفجيرها عن بعد .. كلها أساليب لا تتبعها المقاومة العراقية لكنها تسبب صداعًا للأمريكيين .. ثم إنه صارم جدًا مع جنوده ويتابع كل شىء كالصقر ..

نفس السؤال يطرحه العسكريون الأمريكيون .. هناك رجل يقود الثوار ويدخن السيجار ويقتل الأسرى .. المقاومة الإسلامية فى العراق لا تفعل هذا .. إنه ملتح لكنه نوع آخر من اللحى .. يستدعون الجنرال (جيمس مورتون) أو هذا هو الاسم الذى يطلقونه عليه وهو رجل مخابرات مركزية كان يعمل سابقًا فى العمليات القذرة فى بوليفيا .. إن الأمر يبدو له مألوفًا ..

إثر مواجهة فى الشارع أوشكت على القضاء عليه يدرك (مورتون) إن هذا الخصم لا يشبه (جيفارا) .. إنه (جيفارا) نفسه ! البصمات تؤكد هذا .. لكن كيف تم هذا ؟

بعد تحقيقات مطولة يكتشف الحقيقة .. هناك من أخذ نسيجًا من أنسجة جيفارا الأصلى ، وأرسلها للصينيين الذين كانوا متقدمين فى الاستنساخ .. هكذا نشأ طفل صغير فى الأرجنتين لينال ذات تربية جيفارا .. هذا الطفل صار اليوم جيفارا شابًا متحمسًا لمحاربة الأمريكيين فى أى مكان ، حتى وإن انقطعت علاقته بالمشروع الصينى القديم ..

أين يوجد أمريكيون يمكن أن تحاربهم ؟ فى العراق طبعًا .. هكذا يدخل العراق ويكون هذه النواة الثورية التى لا تحظى بشعبية كبيرة بين الأهالى .. إنه يتكلم لغة الستينات التى لم يعد لها مكان .. لكن عملياته فعالة والمجموعة التى تحيط به ذات كفاءة واضحة ..

عن طريق المزيد من التحقيقات ينجح (مورتون) فى معرفة كعب (أخيل) الخاص بهذا الجيفارا .. إنه ككل نواتج تجارب الاستنساخ يعانى عيبًا حيويًا .. إنه

عاجز عن تكوين الأحماض الأمينية الأساسية من ثم هو بحاجة إلى الحصول عليها فى طعامه .. عن طريق عميل يرفض التورط فيما هو أكثر يقوم الأمريكيون باستبدال علبة الكبسولات .. ما قالوه له هو إن الكبسولات خالية لكنهم فى الواقع وضعوا فيها سمًا غامضًا من تلك السموم الخاصة بالمخابرات الأمريكية ..

لكن (جيفارا) يكتشف اللعبة ، إلا أنه يلصق التهمة بـ (عبير) بالذات ، وهكذا يصدر عليها حكم الإعدام الثورى ..

الفوهة ملتصقة بصدغها .. وصوت الـ (كليك) قادم لا محالة ..

هل نسيت شيئًا ؟

★ ★ ★

٢ ـ من فعلها ؟

« إننى أحس على وجهى بألم كل صفعة تُوجَـه إلـى مظلوم فى هذه الدنيا ، فأينما وجد الظلم فذاك هو وطنى .. »

تشى جيفارا

★ ★ ★

كما هو متوقع يظل المخ يعمل منذ الطفولة ، إلى أن تأتى اللحظة التى تحتاج له فيها فعلاً ..

ها هى ذى وسط المخزن ، جاثية على ركبتيها وفوهة المسدس تلتصق بصدغها .. مؤلمة جدًا .. فلابد أن الرصاصة التى ستخرج منها أكثر إيلامًا .. لكن الغريب أنها كانت تشعر ببرود ولا مبالاة غريبين كأن هذا يقع لشخص آخر .. وأدركت أنه أحد ميكانيزمات الدفاع الشهيرة ..

الرجال يحيطون بها فى دائرة ، وتذكرت برغمها منظرًا مشابهًا فى فيلم (مدافع نافارون) حيث تم إعدام العميلة النازية الحسناء فى احتفال جماعى شبيه بهذا .. هذا ليس عادلا .. الموت لحظة شديدة الخصوصيـة .. ليس من العدل أن تموت الفتاة وسط كل هؤلاء الرجال ..

(جيفارا) ينظر لها فى ثبات منتظرًا ما سترد به ، وقد صار منظره أقرب شىء إلى الأسد فى هذه الإضاءة الخافتة .. لماذا أصر (ابن الهيثم) على أن العينين لا تشعان نورًا ؟ هى متأكدة من أن (جيفارا) يشع نارًا من عينيه ..

أخيرًا جاءها الصوت فقالت :

ـ « لم أفعل .. ولا علم لى بالموضوع .. »

قال فى صوت بارد :

ـ « أحدهم فعل هذا ودس هذا السم للتشى .. رفاقى من الثوريين لن يفعلوا هذا .. من الذى جاء لمجموعتنا مجددًا ؟ »

قالت وهى تفكر :

ـ « أنا طبعًا .. »

كانت تتحدث بطريقة آلية كأن شخصًا آخر يتكلم بدلاً منها .. لهذا لم تعرف قط إن كانت إجاباتها غبية أم رائعة الذكاء .. فقط كان عقلها يستغل هذا البرود خير استغلال ..

كان يلوح بعلبة من الكبسولات في وجهها .. علبة عليها كتابة بخط اليد .. وأردف :

ـ « عندما شككت فى الأمر ، دسست كبسولة فى فم ذلك الكلب الضال الذى يحوم حولنا .. وكما توقعت .. »

ـ « مات طبعًا .. »

ـ « بل لم يحدث له شىء ! سموم المخابرات المركزية هذه لا تعمل بهذه الفظاظة .. إنها تعمل فى صمت وخبث ، وغالبًا ما يحسب الأطباء أنهم أمام مرض عضال ! »

كان المنطق عجيبًا .. فلو مات الكلب لكان معنى هذا أن الكبسولة سليمة .. لكنه أردف :

ـ « شعرت أن هناك من عبث فى حاجياتى .. عندما تفحصت العلبة بعناية وجدت .. »

قالت بذات الطريقة الآلية :

ـ « وجدت الشعرة فى غير موضعها أو مفقودة .. »

الشعرة .. هى طريقة عتيقة جدًا ، لكنها كانت تستعملها بإفراط .. كانت تضع الشعرة محيطة بكراس مذكراتها أو حاجياتها .. وهى الطريقة التى تتيقن بها أنه ما من

أحد تسلل إلى درجها .. بالطبع لم تكن أسرارها ذات أهمية على الإطلاق .. هى فقط مهمة لها .. وبالطبع لم تكن هناك خطابات غرامية من معجب يذوب عشقًا لأنها لم تكن من هذا الطراز الذى يروق للفتيان ..

فقط نظر لها (جيفارا) بدهشة .. ثم قال :

ـ « إذن أنت تعرفين موضوع الشعرة من لحيتى .. »

قالت فى إنهاك :

ـ « لا يحتاج الأمر إلى ذكاء .. لا تنس أننى فتاة ، وهذه الحيلة نسائية تمامًا إذا سمحت لى .. لكن الفتاة لا تستعمل شعر لحيتها بل تستعمل شعرة من رأسها »

ما زالت الفوهة ملتصقة بصدغها ، لكن (جيفارا) مد يده ليخفض من حدة نظراته قليلاً .. لم تعد حارقة .. وبدا أن هناك شيئًا جعله غير واثق من موقفه ..

قال بصوت أكثر هدوءًا :

ـ « غريب .. لو كنت تعرفين هذا ـ وأنت كذلك ـ لحرصت على ألا ينكشف أمرك .. »

ابتلعت ريقها .. هناك بعض الأمل .. ليس الموقف كابيًا إلى الحد الذى شعرتْ به أولاً ..

لم تكن تملك أية فكرة عن الموضوع .. ما هذه الكبسولات ؟ لماذا يتعاطاها ؟ هل هى لعلاج الربو مثلاً ؟

من الظلم أن تموت ، وهى لا تعرف أى شىء عن الموضوع ..

نظر (تشى) لرجاله الواقفين .. دارت عيناه الثاقبتان بينهم ثم قال :

ـ « من منكم يعرف أهمية هذه الكبسولات لى ؟ »

قال أحد الرجال فى حذر :

ـ « لا نعرف .. فقط نراك تتعاطى بعضها كل يوم .. كلنا رأى ذلك .. »

ـ « الفتاة لم تفعل .. لم ترنى أتعاطاها قط .. »

ثم ازدادت لهجته اتهامًا ، وقال :

ـ « هناك من عبث بحاجياتى .. فمن منكم فعل ذلك ؟ »

كأنه يتوقع أن الفاعل سوف يرفع إصبعه فى خجل ..

قال أحد الرجال :

ـ « لا أحد سوى الفتاة .. »

ـ « ومن سواها ؟ »

صمت الرجال وراحوا يتبادلون النظرات .. نفس المشهد الشهير والوجوه المتشككة فى لوحة (دافنتشى) العشاء الأخير .. أينا هو (يهوذا) ؟

المشكلة هى أن تحديد الفاعل عسير جدًا .. كلهم ينام فى ذات المكان .. كلهم يستطيع العبث فى حاجيات أى شخص .. كلهم قادر على الاختفاء بضع ساعات يتصل خلالها بالأمريكيين ..

راح يتأمل العيون .. لا يوجد فيها دليل .. أم ..؟

فى هذه اللحظة ودون أن يشعر أعاد المسدس إلى حزامه .. لقد ألغى حكم الإعدام أو تم تأجيله .. ونهضت (عبير) شاعرة بأنها أمضت قرنًا على ركبتيها .

قال (جيفارا) بلهجة آمرة لأحد الفتية :

ـ « (إياد) .. هات لى علبة الكبسولات من الغرفة الداخلية التى كانت مزودًا ... سوف أعقد امتحانًا صغيرًا لكم .. »

هز الفتى رأسه وتحرك في ذات اللحظة التى غمغم فيها أكثر من واحد :

ـ « لكن .. إنها فى يدك يا سى (عمارة) .. »

ابتسم (جيفارا) ابتسامة واثقة ، على حين توقف الفتى (إياد) فى منتصف المسافة وعاد ..

قال التشى ، وهو ينظر للفتى فى ثبات :

ـ « نعم .. هذا صحيح .. الكل رأى علبة الكبسولات فى يدى .. لكن واحدًا فقط عرف أنها ليست العلبة المقصودة .. هذه علبة فيتامينات لا تشبه الأخرى فى شىء وحملتها على سبيل التمويه .. واحد فقط عرف أن علبة الكبسولات ما زالت فى مكانها لأنه هو من سرقها وأعادها .. لقد ظل حذرًا لكنه تصرف تلقائيًا ودون وعى عندما طلبت منه إحضار العلبة .. ثمة سؤالان هنا : كيف عرفت أن العلبة ما زالت هناك ؟ وكيف كنت تنوى أن تجدها ؟ لماذا لم تسألنى عن

مكانها ؟ هلم .. أجب .. إن الزلات اللاشعورية كارثية دائمًا وقد تودى بحياة رجل العصابات الثورى ، لكن من المؤكد أنها تودى بحياة الخائن كذلك ! إن الأمر يشبه قصة الجاسوس النازى الذى ظل رجال المخابرات البريطانية يحاولون بكل الطرق جعله يعترف بأنه يفهم الألمانية .. جربوا كل شىء على مدى أشهر عدة .. فى النهاية قال له الضابط البريطانى إنهم آسفون وإن بوسعه الانصراف .. هكذا نهض شاكرًا .. فقط بعد فوات الأوان تذكر الجاسوس أن الضابط قال ما قاله بالألمانية ! »

احتبست الكلمات فى حلق الفتى ، فهتف بهراء على غرار :

ـ « أنت قلت إنها فى الغرفة الداخلية .. ما دمت طلبتها فهى ليست معك .. »

ـ « هذا قد يكون صحيحًا .. لكنى تذكرت أننى تركتك فى الغرفة جوار حاجياتى أكثر من مرة فى الأيام السابقة .. تذكرت أنك أضعف نفسية فى رجالى ، وأنك تحمل إعجابًا خفيًا بالحياة على الطراز الأمريكى .. كنت شبه متأكد لكنى أردت أن أعقد لك هذا الامتحان الأخير .. »

ثم أخذ شهيقًا عميقًا وقال :

ـ « دعك من أهم الأدلة .. وهو عيناك .. هاتان عينا خائن مثقل الروح .. »

لا تدرى (عبير) متى ولا كيف طرح الفتى أرضًا . ولا كيف صار فى موضعها بالضبط .. عندها أدركت أنها كانت أكثر ثباتًا وصلابة .. لقد راح الفتى يبكى كالرضع ، وبدأ يحكى كل شىء منذ أصيب بالحصبة بسبب رذاذ سعال صديقه فى الحضانة ، حتى إبدال الكبسولات .. استغرقت الاعترافات نصف ساعة ، وكانت شائقة بحق ..

اصطحبه (جيفارا) لغرفة داخلية ومن جديد دار المزيد من الاستجواب ..

عندما عادا إلى المجموعة بدا واضحًا أن الفتى يعرف فحوى اللحظات القادمة .. لقد ركع على ركبتيه فى وسط القاعة وأغمض عينيه ، وتدلى رأسه على صدره ..

ـ « بناء على حكم المحكمة الثورية ، فإننى أنفذ فيك حكم الإعدام لمحاولتك قتل التشى .. »

وقبل أن تقول أو تفهم شيئًا دوت الرصاصة.

فى هذه اللحظة فقط تخلت قواها عنها وراحت تبكى وترتجف ..

لقد كان هذا مصيرها منذ دقائق ..

الحق إن جيفارا كان حازمًا لدرجة القسوة .. حتى لو كانت هذه مجرد طريقة لإيقاع الفاعل الحقيقى ، فقد عبث بأعصابها أكثر من اللازم ، وهو متأكد من انها بريئة ..

نظرت له فى شىء من المقت وهو ينفخ الدخان المتصاعد من فوهة مسدسه ، ثم يخرج نصف سيجار من جيبه ليدسه بين شفتيه .. مزيج غريب من رائحتى التبغ والبارود ....

قال دون أن ينظر لها :

ـ « الحقيقة أنه تسرع بالاعتراف .. لم أقل حجة دامغة واحدة عليه .. ربما لو صمد قليلا لاستطاع تبرير تصرفاته بالتسرع أو سوء الفهم .. لكن ضميره كان مثقلاً .. »

ثم هتف فى الرجال :

ـ « تخلصوا من الجثة .. ثم استعدوا للرحيل .. نحن لا نعرف ما قاله للأمريكيين ... ربما كانوا يزحفون إلى مكاننا هذا الآن .. »

سألته فى قلق :

ـ « هل تعتقد هذا ؟ »

قال همسًا :

ـ « لا أظن .. لو أرادوا اللجوء لهذا لما استعانوا بالسم ، ولوجدت مدرعاتهم تحاصرنا منذ ساعات... »

هنا سمعت عواء طويلاً أليمًا ...

أطلت برأسها من الباب فوجدت كلبًا ضالاً يتلوى ألمًا .. لقد بدأ السم يعمل بنجاح تام ..

دوت الطلقة الثانية فتكوم الكلب ساكنًا .. استدارت فى هلع لتجد (جيفارا) يعيد مسدسه لحزامه من جديد ، وقال وهو يلوك السيجار :

ـ « لقد قام هذا الرفيق بعمله الثورى خير قيام ، فلا داعى لإطالة آلامه .. ألا ترين هذا معى ؟ »

٣ـ جيفارا يجب أن يموت (ونكررها) ..

قالت له :

ـ « لاحظت عدة صفات فيك ، لكن أهمها أنك لا تتردد فى اتخاذ القرار .. »

قال وهو يرمق معالم الطريق :

ـ « صفات الزعامة من أصعب الصفات .. يجب أن يقدر الزعيم على فهم كل شىء والإحساس بكل شىء .. لهذا تجدين أن (جيفارا) عندما كان فى كوبا وجد أنه من الأسهل عليه ان يقوم بدور الرجل الثانى ، ويترك الدور الأول لكاسترو .. لقد شعر على الفور بأن الرجل المختار هو كاسترو .. »

كادت تسأله عن سبب اختيار هذا المثال بالذات .. الحقيقة أن الأمر انتهى منذ زمن ، وصارت مستوعبة تمامًا لحقيقة أنها تمشى جوار جيفارا .. الغريب أن إصراره على أنه ليس (جيفارا) بدا لها سخيفا .. يذكرها بصديقتها (حنان) التى تحكى لها عن صديقة تهوى شابًا لا يشعر بحبها .. تجيب وتقترح لكنها

تعرف جيدًا أن (حنان) تتكلم عن نفسها .. سرعان ما تنسيان القناع الواهى وتروح (حنان) تسأل : « وماذا أقول له ؟ هه ؟ هل تقترحين أن أتجاهله تمامًا ؟ » . الخ .. لقد تم تجاهل ضمير الشخص الثالث تمامًا ليحل محله ضمير الشخص الأول ..

كانت تعرف أن اللحظة قادمة عندما يكف فيها عن الكلام عن (الرفيق جيفارا) ويتكلم عن نفسه .. لكنها لن تبدأ ..

* * *

فى هذا الوقت كان اجتماع صاخب يدور فى القيادة ..

كان (مورتون) قد اعتاد هذه المواقف .. مر بآلاف منها من قبل ، ويعرف أنها تنتهى بانتصاره دومًا .. لهذا ظل يرقب الجالسين من خلف زجاج نظارته الذى لا يظهر عينيه أبدًا ، وإنما يعكس إضاءة الغرفة ..

قال (وايلدفاير) وهو يضرب المنضدة بيده :

ـ « لقد وجدنا جثة عميلنا .. (جيفارا) قد كشف السر وأعدمه .. »

- « من الواضح أنه جرب الكبسولات على كلب .. لقد وجدنا جثته .. »

- « خطتك كانت مليئة بالثغرات وعميلك لم يستغرق الكثير من الوقت حتى يكشف نفسه .. »

وقال جنرال بدين من الطراز متقطع الأنفاس إياه :

- « كان بوسعنا دس جهاز اتصال فى ثياب العميل دون علمه ، ثم تقوم (الأباتشى) بقصف الموقع حسب الإشارة .. »

ظل (مورتون) يتحسس نقه وهو يتابع ما يقال بطريقة بدت أقرب إلى الاستمتاع .. فى النهاية قال فى هدوء :

- « هذه الآراء تضيف لى خبرات عظيمة يا سادة .. لكن إن كان هناك شىء أمقته فى هذا العالم فهو الحكمة بأثر رجعى .. لدى فى الولايات جار هو أفضل شخص فى العالم يخبرك بالحصان الرابح ، وبعد السباق هو أفضل شخص فى العالم يخبرك بسبب عدم فوز هذا الحصان .. لقد كانت الخيارات ، مفتوحة وقد رأيتمونى أعمل فلم يقل أحد شيئاً ولم تطف هذه الأفكار العبقرية للسطح إلا الآن .. »

تبادل الرجال النظرات ..

بعد هنيهة من الصمت مد (وايلدفاير) يده إلى زجاجة الويسكى فصب لنفسه بعضًا من السائل الأصفر الشفاف وتشممه قبل أن يجرعه مرة واحدة ، وقال :

ـ « الحق معك .. لكننا محبطون لأننا فقدنا هذا العميل .. إن كل عميل كنز يجب عدم التفريط فيه .. »

ـ « أنا أكثر حزنًا ، لكن هـذا لا يجب أن يمنعنـا مـن التفكير بشكل منطقى .. (جيفارا) قد عرف فكيـف عرف ؟ الكبسولات قد تم التخلص منها فمن أين يأتى بالمزيد ؟ »

بررروم !

اهتزت الغرفة ودوى صوت انفجار مروع .. الواقـع أن الأمر بدا أقرب إلى هزيم الرعد منه لأى شىء آخر ..

وثب جميع الرجال من مقاعدهم وانحنوا جوار منضدة الاجتماعـات ، فهـم جميعًـا مـن ذوى الخـبرة العسـكرية ويعرفون معنى هذا الصوت ، فلم يقفوا يتلفتـون فـى بلاهـة كما يفعل المدنيون .. على حين اتخذ جنديا البحرية الواقفان على الباب وضعين قتاليين ممتازين .. الوحيد الذى ظل جالسًا حيث هو بذات الثبـات كـان (مورتـون) .. فقـط قال وهو يشعل سيجارًا :

ـ « قصف صاروخى .. هذه مشكلة أخرى صارت جزءًا من نسيج الحياة اليومى .. لكننا على الأقل نعرف أنه ليس (جيفارا) فهذا ليس أسلوبه .. »

دوى انفجار آخر ، وتصاعدت صفارات إنذار تعوى ، وصرخ رجال فى مكان ما ، وتلاعب الضوء فى مصباح السقف .. لكن (مورتون) ظل حيث هو .. بعد كل هذه السنوات من الخطر يحتاج لشىء أقوى كى يهزه .. إنه مسن الآن لكنه يتوقع أن أمامه ثلاثين عامًا أخرى من النجاح ما لم يصب بالسرطان كعادة الغربيين متقدمى السن ..

نهض إلى النافذة وفتحها ، وفى الخارج كانت الفوضى ضاربة أطنابها .. سيارات إسعاف تجرى هنا وهناك .. وجنود يتصايحون .. ولسان لهب يرتفع عشرة أمتار فى الهواء ..

نظر إلى السماء ثم قال بعد دقيقة :

ـ « أعتقد أن القصف توقف يا سادة .. يمكننا مواصلة اجتماعنا .. »

عاد الجنرالات إلى المناضد فى شىء من الكبرياء الجريحة ، وقال أحدهم :

ـ « سوف نرسل الدوريات حالاً .. هؤلاء الأوغاد لن يفروا .. »

قال (مورتون) وهو يصب لنفسه بعض الشراب :

ـ « ولن تجدوا شيئاً .. لقد صار هذا الروتين مملاً .. لكن هذه ليست مشكلتى على كل حال .. »

ثم مد يده إلى الملف أمامه على المكتب ، وأخرج صورة كبيرة لـ (تشى جيفارا) .. تلك الصورة التى التقطها (كوردا) لـ (جيفارا) وهو ينظر للمستقبل .. الصورة التى تحولت إلى ذلك الملصق الشهير ..

قال وهو يلوح بها :

ـ « هذا هو خصمى الذى من أجله جئت .. منذ الستينات تعلمت أن على أن أجد هذا الرجل وأفتك به لأنه يمثل كل ما هو ضد الولايات المتحدة والحلم الأمريكى .. هذا هو خصمى وسوف أجده وأقهره كما فعلنا منذ أربعين عامًا .. »

قال أحدهم :-

ـ « هل لديك تقنية ما ؟ »

ـ « الخيانة طبعًا .. »

قالها فى بساطة كأنه يقرر حقيقة واقعة وأردف :

ـ « فى الستينات ظفرنا به عن طريق الخيانة ، ورهانى هو أن أحد رجاله سوف يلين .. دعك من أنه يتصرف برومانسية قد تكون ساذجة أحيانًا .. مثلاً هو ارتكب خطأ فادحًا عندما ذهب إلى الكونغو .. وارتكب خطأ أسوأ عندما ذهب إلى بوليفيا حاسبًا أن الماركسيين قادرون على مساعدته .. سوف يرتكب غلطة ما هنا وسوف يدفع الثمن .. »

ثم نظر إلى الصورة .. الحقيقة التى لا يعرفها هؤلاء هى أنه يقضى أكثر ساعات وحدته يحدق فى هاتين العينين ، ويحاول تخيل ما تفكران فيه .. هذه التقنية التى استعملها (مونتجمرى) مع (روميل) كثيرًا جدًا فى العلمين .. هناك جزء ما من طريقة التفكير تعرفه من العينين .. لا مناص من تأمل العينين كى تفهم ..

سوف يحاول جيفارا تجنيد المزيد من الأهالى ، عندها يجب أن يقبل واحد من هؤلاء الانضمام للأمريكيين .. يقبل أن يكون عميلاً جديدًا ويدلهم على جيفارا .. هذا هو الحل الوحيد بما أن النواة المحيطة به صلبة غالبًا صعبة الاختراق ..

قال أحد الجنرالات الجالسين :

- « تلقينا بعض الإخباريات عن وجوده هنا أو هناك .. خرجت طائرات الأباشى وقصفت الأماكن التى قيل إنه فيها .. النتيجة دومًا محبطة .. أسرة كاملة أو مجموعة أطفال ذهبت أمهن للسوق .. إن سمعتنا تزداد سوءًا .. »

قال (مورتون) وهو ينظر له بنظارته العاكسة :

- « لابد من خسائر بين المدنيين وإلا فلا حرب أصلاً .. ما يضايقنى فى عمليات كهذه هو الفشل وليس موت الأطفال .. إن (جيفارا) يعتقد أننا دولة إمبريالية منافقة لا تتورع عن أى عمل وحشى من أجل زيادة عدد الدولارات فى جيب المواطن الأمريكى .. الواقع أنه محق وإننى لمعجب بدقته ! لكن علينا أن نستحق هذا الوصف وإلا لكان ظلمًا ! »

نظروا له فى دهشة .. هذا الرجل لا يخجل من التصريح بما لا يريد أحد التصريح به .. الأمور واضحة تمامًا وهو يتمتع بسلام نفسى لا بأس به ..

نهض (مورتون) مغادرًا القاعة .. وفى الخارج كانت رائحة الحريق تزكم الأنفاس .. الكل يركض فى كل صوب مع جو عام من الهستيريا ..

استقل السيارة كعادته جوار السائق ، ومضت السيارة تشق طريقها خارج القاعدة بينما هو يرقب الفوضى من النافذة ..

(فيتنام) .. لا شك فى هذا .. نفس العلامات التى يعرفها جيدًا .. أعراض (فيتنام) .. إننا نخسر هذه الحرب ونخسرها بسرعة .. لقد تورطنا فى هذا المكان ، وصار الخروج يحتاج إلى معجزة ..

حتى فى فيتنام كان الوضع أفضل ، لأنهم كانوا يواجهون عدوًا له طول وعرض وارتفاع .. عدو له قائد وله معسكرات وله تنظيمات قيادية .. الفيت كونج .. أما هنا فلا أحد يعرف شكل العدو الذى يواجهونه بالضبط ولا مدى قوته ..

ثم يأتى هذا الأبله (جيفارا) ليزيد الأمور تعقيدًا ..

لشد ما يكره الأيديولوجيات بأنواعها .. يكره أن يرى أحدًا يفعل شيئًا دونما هدف واضح يمكن الإمساك به .. كسب مادى .. كسب استراتيجى .. لكن أن يقاتل المرء من أجل مبدأ فهذا يبدو له رقيعًا إلى حد لا يوصف ..

ضغط (مورتون) على أسنانه فى حركة عصبية يكره أن يراها أحد ..

سوف يجده وسوف يقتله .. ربما هُزمت الولايات المتحدة وربما اضطرت إلى الخروج ، لكن (جيفارا) لن يكون ضمن من يحتفلون بعيد النصر ..

لقد اقسم هو (مورتون) على ذلك .. وهو لم يعتد على أن يحنث بوعوده التى قطعها لنفسه .. (جيفارا) طفرة جينية موجودة فى الزمن والمكان الخطأ .. وعليها أن تختفى كما يجب أن يختفى أى ديناصور تراه فى نيويورك اليوم ..

جيفارا يجب أن يموت ..

* * *

٤ ـ للضرورة أحكام ..

« العالم لا يحتاج للنصائح بل للقدوة .. فكل الحمقى لا يكفون عن الكلام »

تشى جيفارا

★ ★ ★

كانت الآن تحفظ أكثر تعليمات (جيفارا) بصدد حرب العصابات ..

كان يؤمن أن بوسع الإنسان أن يقطع من عشرين إلى خمسة وعشرين ميلا فى الليل ، وهذا جعل قدميها تتحولان إلى عكازين لا يمتان لها بصلة .. لكنها على الأقل لم تكن تحمل سلاحًا مثلهم .. بينما كان الرجل يحمل حوالى ٥٥ رطلا (٢٥ كيلوجرامًا) من العتاد .. وكانت سرعة المسيرة محددة بسرعتها هى لأن (جيفاراً) كان يقول : « إن سرعة الوحدة تتوقف على سرعة أبطأ فرد فيها .. »

كانوا الآن فى ضواحى (بابل) .. الاسم الذى جعلها تشعر برهبة وهى تتذكر أيام (جلجاميش) عندما كانت هى (عشتار) .. يا لها من أيام !

إن مشكلة العتاد مشكلة دائمة لرجل العصابات ، وعليه ألا يدخل أى قتال حتى لو كان موقنًا من قدرته على الفوز به إذا لم تتيسر له الفرصة لتجديد العتاد بسرعة .. لهذا كانت المجموعة تترك فرانس سهلة فى أحيان كثيرة ..

كانت هذه الوحدة التى تمشى فى الظلام الآن تتشكل من عشرة رجال .. وهو الرقم المفضل لدى (جيفارا) للزحف الليلى ..

- « الفئة هى وحدتنا الأساسية .. وهى تضم عشرة مقاتلين يقودها ضابط برتبة ملازم .. كل أربع فئات تكون فصيلاً يقوده نقيب .. كل أربعة فصائل تكون رتلاً يقوده رائد .. »

أما عن الاتصال بالوحدات الأخرى فلماذا يحمل هذا الرجل قفصًا ؟ إنه يحوى الحمام الزاجل طبعًا !

من حين لآخر يكتب (التشى) رسالة بالشفرة ، ثم يطويها ويلفها فى لفافة من رقائق الألومنيوم ثم يثبتها إلى ساق حمامة .. ويطلق هذه الرفيقة الثورية لتحمل تعليماته إلى الوحدات الأخرى ..

ـ « ألا ترى أنها طريقة بدائية بعض الشئ ؟ »

ـ « هذا هو سحرها وسر قوتها .. إن مكالمات الهاتف المحمول يتم تتبعها من الأقمار الصناعية بسهولة تامة .. لا أحد يفكر فى أسلوب بدائى كهذا .. وقد كان الحمام من أهم شهداء الحرب فى الماضى حينما كانت التعليمات للجنود واضحة : اقتلوا أية حمامة ترونها ، لكن لا أحد يفعل هذا اليوم .. »

صحيح أن (جيفارا) الأصلى لم ير هاتفًا محمولاً فى حياته ، لكن خليفته قد استوعب العصر بسهولة ..

فجأة تعالى هدير الدبابات الذى ألفته أذنا (عبير) فأمر (جيفارا) رجاله بأن يتواروا ..

* * *

إنه ذلك الصوت الكريه .. صوت المحرك الذى ترتج له الأرض مع صرير الجنزير العالى ..

صوت الموت ..

ثم من بعيد ظهرت ثلاث دبابات أمريكية تمشى فى صف واحد تحت جنح الظلام .. ثم عربة مدرعة ..

تبادل (تشى) نظرة مع أحد الرفاق فأعد البازوكا .. لم تعد هناك ضرورة لكثرة الكلام .. معنى النظرة هو أن تعد البازوكا لكن لا تطلقها .. إن طلقات البازوكا ثمينة جدًا لأن الفرد لا يقدر إلا على حمل ثلاث طلقات ..

عامة لم يكن (جيفارا) شديد الحماس للأسلحة الثقيلة ، وقد رأته (عبير) يترك مدفعًا مضادًا للطائرات وجده فى موقع .. هذه أسلحة تعوق التقدم ، بينما الأسلحة الخفيفة والبازوكا مهمة دائمًا ..

تتوقف الدبابات على مسافات متساوية قرب أحد البيوت ..

فجأة يترجل من العربة المدرعة مجموعة من الجنود الأمريكيين .. يتقدمون نحو البيت ذى الطابق الواحد .. يوسعون الباب ركلا ثم يهشمونه ويقف واحد فى الخارج على حين يندفع الباقون .. صوت صراخ .. صوت توسل ..

ثم يخرج ثلاثة من الجنود ضخام الأجساد يجرون رجلا ويلقونه على الأرض ..

تسمع (عبير) كلمات الحوار التى تحملها الريح عبر هذه المسافة :

ـ « تكلم .. »

ثم واحد يقول لزميله :

ـ « هذا العربى الأبله لا يفهم الإنجليزية .. »

يحاول الفتى الاحتجاج ، لكن (دبشك) بندقية ينهال عليه .. ثم تتوالى الركلات مع كثير من الضحك .. على بابا يحاول الفرار .. على بابا لا يفهم حرفًا ..

يكرر جندى أمريكى السؤال بالعربية الرديئة :

ـ « تكلم كى تضمن سلامتك .. هناك رجل ملتح يدخن السيجار .. هل تعرف معنى السيجار ؟ هذا الرجل مصاب بالربو ويمشى مع حوالى عشرة رجال .. نحن نعرف أنه فى هذه المنطقة .. هل رأيته ؟ »

يقول آخر :

ـ « ربما كان منهم .. »

ـ « سيكون هذا سيئًا يا على بابا .. »

الرجل لا يتكلم .. لقد ألجمه الرعب .. ضربة أخرى على مؤخرة عنقه ، ثم يقترح أحدهم طريقة لإضفاء بعض المرح على الأمسية ..

ـ « على بابا يريد أن يلعب دور البطل .. سوف نربطه إلى جنزير الدبابة .. »

ـ « واووو ! كوول ! »

من مكانها وسط الخرائب راقدة على بطنها تراقب (عبير) المشهد الذى جعله ضوء الكشافات واضحًا .. إنهم لا يمزحون .. إنهم يربطون الرجل العربى الباكى إلى جنزير الدبابة بحيث صار وجهه للسماء ، وهو وضع لن يدوم طويلاً لأنه سينقلب لأسفل بمجرد أن تتحرك الدبابة بضع خطوات .. سوف يتحول إلى طبقة من أسفلت الشارع .

ـ « هلم يا على بابا .. تكلم ! »

صرخ الرجل وقد فهم ما يُراد به :

ـ « يا لكم من وحوش ! كيف أتكلم وأنا لم أر شيئًا ولا أعرف عمن تتكلمون ؟ »

ـ « هذه فرصتك الأخيرة .. لو ظللت صامتًا إلى النهاية لعرفنا أنك صادق ! »

وبدأ محرك الدبابة يهدر مطلقًا سحابة كثيفة من الدخان ..

نظرت (عبير) إلى جيفارا .. فوجدته ذاهـل العينيـن ولحيته ترتجف .. افعل شيئا أرجوك ..

بالفعل كان تحمله قد اقترب من النـهاية .. أشـار لحـامل البازوكا وهمس :

ـ « أطلق على برج الدبابة .. احترس من أن تصيب الرجل .. »

ثـم أشـار لرجالـه وهتـف بصـوت سـمعه الأمريكـان بالتأكيد :

ـ « القناصة ! أسقطوا الجنود الذين يحيطون بالفتى ! »

وخرج من مكمنه مطلقًا وابلاً من الرصاص على حشد الجنود الأمريكيين الذين لم يجدوا وقتا للإمساك بأسـلحتهم ، وفى اللحظة ذاتها انفجر برجا الدبابة الأولى والثالثة ..

حاولت الدبابة الثانية أن تدور حول نفسها وقد أدرك قائدها الملازم (جيفرى) من (ميسورى) أنه وقع فى ذات الكمين الشـهير .. مصيـدة أرض المـوت .. لكـن طلقة بازوكا دمرت الجنزير ..

كانت المجزرة شاملة قاسية ..

كان الرجل العربى مقيدًا إلى الجنزير بلا حول ولا قوة .. يصرخ بينما الطلقات تطير فوق رأسه .. وأدرك فى هلع أن الجنزير يتحرك .. الدبابة التى طار رأسها تحاول التحرك .. هنا استقرت طلقة فى الجنزير المقابل لتفكه عن المحاور نهائيًا وهمد الوحش الحديدى ..

تعالى صوت الطلقات بينما الأمريكان يتساقطون كالذباب .. وفجأة صرخ (تشى) وسط الضوضاء :

ـ « لا مزيد من الطلقات ! اقتصدوا فى الذخيرة ! لقد هلكوا جميعًا ! »

لكن بعض رجاله واصلوا إطلاق النار ، وقد استبدت بهم حماسة الحروب ، من ثم كرر أمره بعنف أكبر وهتف فى غيظ :

ـ « لو كان الأمر بيدى لأعطيتكم مسدسات لا تحوى إلا طلقة واحدة حتى تستخدموا الذخيرة بذكاء »

ثم أخرج من حذائه ذى الرقبة خنجرًا مزق به قيود العربى المقيد ، وأمر رجاله كالعادة بأن يلغموا جثث القتلى ويأخذوا أسلحتهم .. لابد أن طائرات البلاك هوك قادمة ..

الحقيقة أن شعار القوات الأمريكية الشهير (لن نترك أحدًا وراءنا) بدأ يتذبذب كثيرًا مع عادة تلغيم جثث القتلى هذه .. لقد أصاب براعتهم فى عمليات الإخلاء فى مقتل ..

وسرعان ما كانوا يبتعدون فى الظلام ومعهم العربى الذى كان سيقضى نحبه بعد دقيقة واحدة ..

لم يكن يريد الاشتباك ، لكن للضرورات أحكامها ..

* * *

٥ـ نهار صاخب ..

« لن يكون لدينا ما نحيا من أجله .. إن لم يكن عندنا ما نموت من أجله »

تشى جيفارا

* * *

فى موضع بين (بابل) و(الكوفة) أى نحو الجنوب أقام (جيفارا) معسكرًا صغيرًا مع رجاله .. كالعادة وسط مجموعة من المبانى التى أحالها القصف الأمريكى إلى خرائب ..

بالطبع كانت السياسة عدم إشعال نار .. لابد من تناول المعلبات وشرب الشاى الذى تم إعداده منذ يوم .. وهكذا جلس الرجال يأكلون عشاءهم ، على حين جلس (جيفارا) فى ذلك الموضع المعتاد له بعيدًا عن الزحام ، وقد أعد لنفسه حجرين عليهما لوح من الخشب فيما يشبه مكتبًا بدائيًا لأنه لا يستطيع أن يعيش من دون أن يقرأ ويكتب . فقط جلست (عبير) بقربه مكتسبة هذا الحق من أنوثتها ومن (أرجنتينيتها) إن

صح التعبير .. فتاة وصحفية وأرجنتينية .. هذا يعطيها الكثير من المزايا هنا ..

أشعل لنفسه شمعة ثبتها جوار الأوراق ، ثم أشعل سيجارًا وبدأ يغوص فى عالم الكلمات ..

رفع رأسه يتأمل الرجل الذى أنقذه والذى جلس وسط الرجال يلتهم الطعام البارد .. ثم ناداه بصوت خفيض هادئ :

- « تعال يا (غسان) .. »

كف الرجل عن الأكل ونهض مسرعًا ..

كان فى الثلاثين من عمره ، وإن بدا أكبر سنًا مع كل هذا الشيب فى رأسه والمعاناة على ملامحه .. لكن عينيه كانتا تلمعان ببريق لا تخطئه العين .. يلبس قميصًا خفيفًا باليًا أحكم غلق أزراره ، وبالطبع كان الدم المتجمد على أنفه وشفتيه ، فتلك المعاملة التى عاملها إياه الأمريكان لم تكن تدليلًا ..

سأله (جيفارا) فى رفق :

- « هل أنت بخير ؟ »

- « الآن بعد ما أكلت أشعر بأننى فى خير حال .. »

ـ « نحن قُريبون من الكوفة .. يمكنك أن ترحل فى أى وقت ، أما إن كنت ترغب فى البقاء معنا قليلاً فهذا من حقك .. »

سألته (عبير) :

ـ « أين أسرتك ؟ »

نظر لها الرجل وابتلع ريقه :

ـ « ليست لى أسرة .. »

ـ « لم تتزوج ؟ »

ابتسم الرجل فى مرارة وقال :

ـ « للدقة أقول إنه لم تعد لى أسرة .. لقد فقدت زوجتى (زبيدة) وثلاثة الأطفال فى قصف منذ أسبوع .. منذ ذلك الحين أهيم على وجهى .. ثم قررت أن ألجأ لهذا البيت الذى كان يخص عمى .. لم يكن هناك أحد بالداخل .. بحثت عن شىء يؤكل ففوجئت بهؤلاء الخنازير يقبضون علىّ ويسألوننى عنك .. »

سأله (جيفارا) ، وهو يطفئ السيجار :

ـ « هل تعرف من أنا ؟ »

- « يتكلم الرجال عمن يدعى (سى عمارة) .. رجل ملتح قوى العينين يتكلم العربية بلكنة ثقيلة ، وينفذ عمليات ناجحة ضد الأمريكيين .. يقولون إنه ما من أحد يفهم ما يقول لكنه فعال .. »

قال له (جيفارا) :

- « حذاءاك ! »

نظر له الرجل و(عبير) فى عدم فهم ، فأردف :

- « حذاءاك غير صالحين للمشى .. تحتاج لحذاء أخف .. »

ملحوظة عجيبة لكن (عبير) كانت تفهم ذلك الوسواس الخاص بالأحذية لدى (جيفارا) .. إن الحذاء هو القطعة الأهم فى ثياب المقاتل ، ولأسباب كهذه أنشأ مصنع أحذية فى كوبا قبل الثورة ..

عاد (جيفارا) إلى خيط الكلام الأصلى فسأل الرجل :

- « هل ترغب فى الانضمام لنا ؟ »

- « أرغب فى الانتقام .. »

- « سوف يُتاح لك الانتقام ، لكن الهدف الأصلى ليس كذلك ، بل القضاء على الإمبريالية .. نحن نقاتل من أجل فقراء العالم .. من أجل المظلومين .. »

ما زالت (عبير) ترى مذاق هذه الفكرة غريبًا .. أى أنه يطالب هذا الرجلِ البائس بأن يقاتل الصينيين من أجل تحرير التبت مثلًا .. ينضم للجيش الجمهورى الإيرلندى كى يحارب إنجلترا .. فى عصرنا الحالى لا يمكن تخيل أن تضحى بحياتك إلا من أجل شيئين : الدين أو القومية .. لا يمكن تخيل وجود شىء مثل (أخوّة المظلومين) .. لكن (جيفارا) كان يعتنق هذه الفكرة الرومانسية .. وكأية فكرة رومانسية كانت نهايتها هناك وسط جبال بوليفيا فى مدرسة ابتدائية خالية .. لقد هلك الحالم الأخير ، لكن نسخته الجينية ما زالت تعتنق الأفكار ذاتها ..

إن التشى لا يقنط ، وقد قضى مع الفتى عدة ساعات يثقفه فيها حتى أوشك رأسها على الانفجار ..

- « إن النضال ضد أمريكا سوف تصبح له أبعاد قارية .. سوف تشتعل المواقد فى أكثر من بلد ، وستزداد هذه المواقد ضخامة وعددًا .. سيظهر مناضلون وثوار جدد فى معمعة النضال الثورى .. وإذا

وجهت هذه النيران بقدر كاف من الذكاء الثورى فسوف تصير قوى يستحيل قهرها .. يجب خلق فيتنام ثانية وثالثة ورابعة .. إن الإمبريالية نظام عالمى هو المرحلة التالية للرأسمالية ، ولا مفر من تسديد ضربات قوية لها .. يجب منع الإمبريالية من السيطرة على بلادنا والحصول على رءوس أموال ومواد أولية .. يجب أن نبعث الاضطراب فى أوصال العدو . وأن نضطره للحرب فى أماكن تصطدم فيها عاداته بالبيئة التى يعمل فيها .. »

ثم رفع إصبعه محذرًا :

ـ « لكن يجب ألا تستهين بالخصم .. إن الجندى الأمريكى ذو قدرات عالية ووسائله ضخمة .. إلا أنه يفتقر إلى الحافز العقائدى .. »

كانت عيناها الآن شبه مغلقتين .. لكنها تقاوم حتى لا يكون موقفها حرجًا لو نامت الآن ..

ـ « يجب أن ننزل بهذا الجيش ضربات معنوية قوية .. بيد أن هذا يحتاج إلى تضحيات ضخمة لكنها ستكون أقل قسوة من لو تجنبنا القتال لندع غيرنا يسحب لنا (أبو فروة) من فوق النار .. »

(أبو فروة) .. الكستناء .. كانت تأكلها في الماضى وكانت أمها تسخنها على تلك المدفأة العتيقة التى تعمل بالكيروسين .. البخار الساخن الحارق يتصاعد من الثمرات بنية اللون ، وذلك المذاق الشبيه بالبطاطا .. تبدو كبندق لكن لها طعم البطاطا ..

إنها ..

لا تعرف كيف نامت .. لكنها فعلت ذلك ..

★ ★ ★

رائحة الفجر .. رائحة مختلطة بالمازوت فى هذه المنطقة ..

تصحو من النوم لتجد أن غطاء موضوعًا فوقها .. وأن (جيفارا) يغسل وجهه فى دلو ماء .. وكان ذلك الرجل الذى أنقذوه (غسان) ما زال غافيًا على بعد خطوات .. لم يكن (جيفارا) رفيقًا لذا وجه لساق النائم ركلة خفيفة ..

هب الرجل مذعورًا فقال (تشى) :

ـ « أمس كان المزاح مسموحًا به .. أما اليوم فأنت جندى من جنودى ويجب أن تلتزم .. »

هب الرجل واقفًا وراح يحشر أطراف قميصه المفتوح فى سرواله .. طبعًا هو يتمنى أن يدخل الحمام لكنه لا يجرؤ على ذلك .. على الأقل ليس الآن ..

فى ذات الوقت وقف ملازم من رجال (جيفارا) العراقيين، وراح يصيح فى الرجال الذين لم يصح بعضهم بعد :

ـ « استيقاظ ! أمامكم ربع ساعة للاغتسال وتناول الإفطار .. سوف نتحرك بعدها إلى الكوفة .. »

الرجال يتأهبون ، ثم يلتفون حول البسكويت الجاف والشاى المعد منذ أيام ..

لم يكد أحدهم يلتهم بضع قضمات حتى صاح (تشى) :

ـ « سوف نختصر هذه الوجبة .. إننى لا أشعر براحة كبيرة بين هذه الأطلال .. »

كان يتحسس صدره وقد بدأ ذلك الصفير يتعالى ..

قالت (عبير) وهى تلبس حذاءها :

ـ « هل الجو يثير الربو لديك ؟ إنها رائحة المازوت تلك .. »

قال (جيفارا) وهو يدلك صدره :

ـ « ليست رائحة المازوت فقط .. إن الربو يتزايد عندى عندما أشعر بالخطر .. نوع من الحاسة السادسة التى لا تخطئ .. تعال يا (فادى) .. »

هرع له أحد رجاله وهو شاب أسمر نحيل له شارب عراقى كث ، فوضع يده على كتفه وتبادل معه حديثًا هامسًا هرع على أثره الشاب يختفى لينفذ مهمة ما ..

ثم اتجه (تشى) إلى جربنديته ليسحب علبة الكبسولات إياها التى كتب عليها بالصينية ، وابتلع كبسولتين .. سألته وقد تشجعت قليلا :

ـ « هل حصلت على كبسولات أخرى ؟ »

ـ « إن لدى مخزونًا هائلاً منها .. ما كنت لأحتفظ بعلبة واحدة »

ـ « لكنه سينتهى يومًا ما .. »

ـ « إن لدى وسائلى .. »

كان الرجال قد تفرقوا ليقضوا حاجاتهم بين الخرائب .. وتمنت لو تستطيع أن تجد مكانًا آمنًا .. مشكلة الأنثى وسط رجال أنها مضطرة لتجاهل فسيولوجيتها .. تنسى

أن لها مستقيمًا ومثانة .. حدث لها شىء مماثل عندما كانت تستكشف منابع النيل ..

فجأة رأت (جيفارا) يتصلب ..

يرتجف ..

كأنه وسيط روحانى يتلقى رسالة من عالم آخر ..

أصابها الرعب من منظره غير المعتاد ..

وفجأة صرخ وهو يقبض على ساعدها بأصابع كالكلابات :

ـ « الآن ! »

وقبل أن تفهم كان قد جرها من ساعدها جرًا .. جرها إلى جانب الخرائب .. جرها إلى حفرة أحدثتها قنبلة سقطت هناك يومًا ما ..

وصرخ وهو يرتمى فوقها :

ـ « أخفضى رأسك يا بلهاء ! »

هل جن ؟ لم تعرف الإجابة إلا عندما ارتجت الأرض بفعل الانفجار الأول ..

★ ★ ★

٦ ـ هجوم بعد الفجر ..

دوى الانفجار الثانى فرفعت (عبير) رأسها تلقى نظرة من تحت إبط (جيفارا) المبتل بالعرق ..

كانت الطائرة شريرة الشكل تبتعد .. طائرة سوداء هى مزيج من الهليوكوبتر والنفاثة تذكرها بفيلم (رامبو) .. إنها (الأباتشى) كما هو واضح وكما رأتها مرارًا منذ جاءت هنا ..

صاروخين ! لقد أطلقت صاروخين على الموضع الذى كانا فيه .. فلابد أن هذا الموضع صار تاريخا .. وهى كانت نائمة هناك بالذات !

لكن الإثارة لم تنته لأنها رأت خيطًا من الدخان يخرج من موضع ما بين الخرائب .. خيطًا متلويًا لا يمشى فى مسار مستقيم ، ولكنه يتجه فى عناد هندسى نحو الطائرة ..

ودوى الانفجار المروع فى الهواء .. لم تسقط الطائرة وخيط دخان يخرج منها ، بل تحولت إلى شظايا فى لحظة .. كانت ثم لم تعد ..

وعلى قدميها تناثر الغبار الساخن ..

من بين الخرائب خرج (فادى) يحمل على كتفه مدفعًا يذكرك بمدافع البازوكا لكنه ليس هو .. لم تكن ذات خبرة لتميز أنواع السلاح ، لكنها قدرت أنه من تلك الأسلحة المحمولة على الكتف والتى تقذف الصواريخ الحرارية .. ساجر أو سام ٧ .. موضة سوفييتية انتشرت فى السبعينات وحققت لقواتنا نوعًا من التعادل مع التفوق الجوى المرعب للإسرائيليين .. عندما تبنت العسكرية المصرية مبدأ (رجل أمام دبابة رجل ضد طائرة) .. لقد كان هذا هو الصاروخ الذى أسقط الطائرة ..

كانت على وجه الفتى الخجول ابتسامة تذكرك بابتسامة الطفل الذى أنجز عملاً يتوقع عليه المديح .. وبالفعل عانقه (تشى) فى حماس وقال :

ـ « أنت مقاتل ثورى بارع .. سوف تصرف لك جراية إضافية اليوم .. أنت تعرف أنك القائد البديل فى حالة مصرعى .. أليس كذلك ؟ »

ثم التفت لـ (عبير) قائلاً :

ـ « شعرت بدنو (الأباتشى) فطلبت منه أن يتخذ وضع الرماية بين الأطلال .. فى العادة تحدث الأباتشى ذعرًا لا يوصف وتفر .. لكن من الجميل أن تتصور ما يمكن حدوثه لو أن الضحية كانت متأهبة ! »

ثم نظر إلى السماء وهتف :

ـ « معذرة أيها اليانكى .. إن خطيبتك الشقراء الجميلة التى تنتظرك فى (أوهايو) سوف تنتظر طويلاً جدًا .. تذكر أننى لم أحمل لك كراهية خاصة .. لكن فى النهاية ما الذى أتى بك هنا ؟ »

كان الرجال قد عادوا من حيث كانوا .. واضح أنهم جميعًا أصيبوا باحتباس البول من الذعر ، فنظر لهم (تشى) باسمًا وقال :

ـ « هيا بنا ! »

* * *

كانت القاعدة الأمريكية نائمة بين المرتفعات كأنها تنتظر لحظة الهجوم عليها ..

قاعدة صغيرة هى محاطة بأسلاك شائكة وبوابة صغيرة جوارها كشك حراسة .. فى الداخل بعض المخيمات البسيطة

التى تتكون من جدران يتم نصبها بسرعة ، وتوجد ثلاث عربات واقفة هنا وهناك ، بينما مجموعة من الجنود بالفانلات الداخلية يركضون جوار العريف وهم يغنون ذلك النشيد المألوف لدى الجيش الأمريكى .. العلم الأمريكى يرفرف كأنه يعتبر أنه فى أرضه.

الخلاصة أن المشهد يذكرها بتلك الصور عن معسكر (جوانتانامو) .. وقد تذكر (جيفارا) الشىء ذاته فهمس :

- « (جوانتانامو) .. لم يكن (جيفارا) يطيق وجود الأمريكيين على هذه البقعة من أرضه ، لكنه لم يستطع التخلص منهم .. »

كان قد سبق رجاله كما هى العادة بمائتى متر .. ثم انتظر قدومهم . نظر إلى الجنود الراقدين على بطونهم يطلون على المعسكر ، وأصدر الأمر :

- « أطلقوا الكوكتيل مولوتوف ! »

وعلى الفور انطلقت القذائف البدائية تحلق فى الهواء لتهبط فوق المعسكر .. حريق هنا وانفجار هناك وفوضى عامة .. ومن مكان ما تعالت صفارات الإنذار ..

- « تراجعوا ! »

كانت (عبير) تشعر بخيبة أمل حقيقية .. إن فارق القوى مخيف وهى لا تتوقع أن يهاجم (جيفارا) بهذا العدد المحدود معسكرًا أمريكيًا ، لكن ما جدوى هذه القذائف التى لم تحدث فى المعسكر ضررًا أشد مما تحدثه بعض الحجارة ؟

الإزعاج ؟ يصعب القول إن ما حدث كان مزعجًا .. هل هو مجرد التواجد ؟ نوع من أزيز الذبابة ؟

لو كان الرجل يعتقد أنه سيحرر بلدًا شاسعًا كالعراق ويهزم إمبراطورية هى الأقوى فى التاريخ ببضع قذائف ، فهو واهم ..

لكن الرجل تراجع مع رجاله إلى منطقة أكثر أمنًا .. وإن بقى رجلان فى موقع متقدم يطلقان الرصاص بلا انقطاع .. طبعًا هو رصاص لا يحدث أثرًا أكثر من الدوى ، فلا يمكن له أن يصل إلى هناك ..

فجأة راحت الأرض تترجرج .. صوت الصرير الذى تحفظه جيدًا ..

هناك رتل من الدبابات الأمريكية يتقدم نحو المعسكر لحمايته ..

ساد الصمت برهة ، وحبس الجميع أنفاسهم وهم يرون الديناصورات الحديدية تزحف نحو المكان ..

ثم دوت الانفجارات ..

يبدو أن الدبابات مرت فوق حزام من الألغام المزروعة ببراعة .. وقد توقف الرتل عن الحركة فى اللحظة التى برز فيها رجال التشى من كل صوب ، يطلقون البازوكا على أبراج الدبابات المتوقفة .. النار والدخان فى كل مكان والضوضاء تصم الآذان ..

جند يثبون من الدبابات محاولين الفرار لكن الطلقات تلحق بهم ..

صاحت فى جيفارا وهى تنبطح أرضًا :

ـ « هل تريد الاستيلاء على المعسكر ؟ »

أطلق زخة من بندقيته الآلية جعلت أذنيها تصفران وصاح :

ـ « من تحدث عن المعسكر هنا ؟ هذه من تقنيات حرب العصابات التى ابتكرتها .. تهديد المعسكر ثم

تدمير القوات التى تأتى لفك الطوق .. إن رتل الإنقاذ لا يكون عليمًا بطبيعة الأرض .. ويكون خائفًا متوترًا مفتقرًا للحماية الطبيعية .. هكذا يمكن مهاجمته فى نقطتين أو ثلاث نقاط وتمزيقه .. وسوف يتلقى رجال المعسكر الرسالة كاملة عندما يرون جثث وجرحى زملائهم .. لكن لا نية لى فى مهاجمة المعسكر ذاته فهو غير ذى أهمية استراتيجية وخطر .. »

الحق أن التقنية كانت خارقة بالفعل .. إن رتل الدبابات الذى جاء لينقذ وجد نفسه بحاجة إلى الإنقاذ ..

وراحت (عبير) ترقب المشهد الذى اعتادته .. القتل .. القتل .. تلغيم جثث القتلى .. سرقة السلاح ثم الانسحاب بسرعة البرق قبل قدوم الطيران .. وبالطبع كانت وحدات المؤخرة تقوم بمسح آثار المجموعة أثناء الفرار ..

ورأت (عبير) ذلك الرجل الذى أنقذوه (غسان) يركض حاملا بندقيته الآلية ، وهو يلملم قميصه الممزق المفتوح على صدره ..

سأله (جيفارا) ملاطفًا :

ـ « هيه .. هل شفيت غليلك ؟ »

- « ليس بعد .. لكنى أحب ما أفعله .. »

ثم توارى مبتعدًا ..

قال (جيفارا) وهو ينظر إلى الدبابات المحترقة :

- « ممتاز هذا الفتى .. يتعلم بسرعة وقد صار جنديًا بارعًا .. ثم إن حافزه المعنوى قوى .. »

- « يبدو أنه يستوعب محاضرات التثقيف التى تصبها فى أذنه .. »

- « هذا صحيح .. إنه متعطش للمعرفة لا يكل أبدًا .. »

لكنها ظلت لا تفهم .. ما هى استراتيجية جيفارا ؟

هذه العمليات قد تؤذى وقد توجع ، لكنها لن تطرد الأمريكان .. إنه بحاجة إلى ثورة شعبية تجتاح كل مدن العراق فمن يشعلها ؟ وكيف ؟ إن أحدًا لا يبالى بما يقول خاصة مع لغة خطابه العتيقة التى لم يعد أحد يستعملها ..

هذه أسئلة لابد أن تطرحها عليه ..

* * *

عندما جلسوا يستريحون بعد عملية الصباح هذه سألته عن رؤيته للمستقبل ، فقال :

- « عملياتنا فعالة لكنها ليست بالكم الكافى .. لا مفر من استقطاب الأهالى لنا .. لابد من المزيد من الفلاحين .. عندما تتكون آلاف الخلايا الثورية سوف تصير أيام أمريكا معدودة .. »

- « لكن هذا يحتاج إلى دهر .. »

- « ليس بالضبط .. إن الناس بدءوا يعرفون من نحن ، وسوف ينضمون لنا عندما يدركون أن هذا هو الفريق الذى يربح دائمًا .. »

ثم نظر إلى جنوده وقال بصوت عال :

- « من السهل التأثير على السكان المحليين ، ولضمان بقائهم معنا لابد من أن نؤمن لهم التوجيه العقائدى السليم .. على الجنود أن يحرصوا على سلوكهم وأن يكونوا فى غاية الأدب والكياسة عندما يطلبون من الأهالى الطعام أو الخدمات .. كل شىء يمكن أن يفسده جندى أحمق يغازل شابة حسناء .. هذا خطأ لا يغتفر وسوف يجعل الأهالى أعداءك بلا نقاش .. أن تسرق شيئًا

من الفلاحين معناه أنهم صاروا فى صف خصمك .. على أن أهم ما يجب أن ينتصر عليه رجل العصابات هو عقدة (الخوف من الحصار) إن وحدة العصابات حسنة التدريب لا تنزعج من هذه المواقف .. علينا أن نتجنب مهاجمة العدو إلا فى الليل قدر الإمكان لأن الظلام حليفنا الطبيعى .. يجب أن يكون النصر هدف كل هجوم .. »

كان هناك جندى يمسك بزجاجة (عرقى) صغيرة يوشك على فتحها ، فنظر له (جيفارا) نظرة نارية وقال :

- « ألعاب الورق والخمور ممنوعة منعًا باتًا فى معسكر الثوار .. لقد قلت هذا ألف مرة .. فى المرة القادمة سأحاكمك محاكمة عسكرية »

نظر له الجندى محاولاً أن يبدو متحديًا ، لكن ما من أحد فى التاريخ فاز بمسابقة تبادل نظرات مع (جيفارا) .. هكذا خفض بصره وأخفى الزجاجة ..

ثم انتهى التشى من تناول طعامه وكوم منشفة تحت رأسه وأخلد إلى النوم ..

تفرق الرجال من حوله ، ولابد أن كلاً منهم قد قرر اغتنام الفرصة للظفر بساعة من النوم ..

أما (عبير) فجلست تتأمل (جيفارا) النائم وقد انسابت خصلات شعره الأسود على وجهه .. مقطب الجبين يبدو أن الهم صديقه الصدوق حتى فى عالم الأحلام ، لكنها شعرت بشكل ما أنه طفل كبير ، وأنها قادرة على أن ترعاه ..

الحالم الأخير . آخر من جرؤ على أن يطالب بعالم أفضل .. وسوف يدفع الثمن .. هى موقنة من هذا .. لا مجال للحالمين فى عالم اليوم القاسى وسط العولمة والإنترنت وثورة الاتصالات ..

راحت تعبث فى الحصى جوار قدمها وهى تمسك بكوب الشاى ..

زر هنا ؟ هذا غريب .. زر جميل الشكل أنيق .. هذا غريب ..

ثم تصلبت ..

هذا يذكرها بشىء ما ..

* * *

٧ـ ألعاب الأزرار ..

تمشى بين الرمال وهى تدعو الله ألا تكون قد تأخرت ..

هناك وراء هذه الكثبان يرقد (غسان) . الرجل الذى أنقذه (جيفارا) من التحول إلى لحم مفروم .. يرقد وقد وضع منشفة مبتلة على وجهه كى يحمى نفسه من الشمس ..

إنه العصر والشمس قد ازدادت شراسة لأنها تعرف أن يوم العمل موشك على نهايته ..

تتأمل (عبير) جسده الراقد على الرمال .. القميص مفتوح كاشفًا عن صدره ..

« يلبس قميصًا خفيفًا باليًا أحكم غلق أزراره ، وبالطبع كان الدم المتجـ .. »

الآن لم يعد هناك عدد كاف من الأزرار يكفى لستر جسده .. كانت أزرار قميصه كاملة سليمة عندما التقوا .. دققت النظر فوجدت أن الأزرار تتطابق مع الزر الذى وجدته جوار التشى ..

جلست جواره ونظرت للسماء .. إنها مقامرة لكن يجب أن تلعبها ..

فى هدوء دست الزر فى جيبه وهو غاف ثم لمست ساعده فى رفق فأزاح المنشفة عن رأسه :

ـ « هه ؟ أنت الأرجنتينية ؟ (ماريا) ؟ هل من شىء ؟ »

ظلت واقفة وقالت :

ـ « لماذا تنام بعيدًا ؟ من الأكثر أمنًا أن تكون مع الرجال .. »

ثم أردفت وهى تنظر للسماء فى عصبية :

ـ « لاحظت أنك مولع بالانفراد بنفسك .. لا تحب التجمعات .. ذلك الصباح الذى تعرضنا فيه لهجوم الأباتشى كنت أنت بعيدًا .. يبدو أنك زهرة حائط حقيقية كما يقول الغربيون .. »

ـ « لا أفهم معنى (زهرة حائط) .. لكن التجربة التى مررت بها تجعلنى لا أطيق البشر .. »

ـ « كم كان عمر أطفالك ؟ »

ـ « ستة وثلاثة أعوام .. »

ـ « قلت ما اسم زوجتك ؟ »

ـ « (نهلة) .. إنها ابنة عمى .. أعنى إنها كانت كذلك .. »

ـ « رحمها الله .. »

ثم نظرت له فى عمق ، وقالت :

ـ « سوف تعيش أيامًا عصيبة .. لكن صدقنى .. إن الأمر يستحق .. والآن أتركك كى تواصل نومك .. »

ـ « شكرًا .. »

قالها ولم ينتظر رحيلها بل غطى رأسه بالمنشفة ، وسرعان ما تعالى غطيطه .. أما هى فقد قررت أن الوقت قد حان للفرار .. لقد امتحنت حظها أكثر من اللازم أما الآن فقد صار الفرار واجبًا ..

هكذا انطلقت تركض وسط الرمال ..

اجتازت حزام الكثبان لتقف جوار (جيفارا) النائم .. ووقفت تلهث وتنظر إلى حيث كانت منذ دقائق ..

عندما تهجم (الأباتشى) لا تراها وهى قادمة .. فجأة ينفجر كل شىء ثم تنظر إلى السماء لترى طائر الموت الأسود يبتعد ..

وهذا هو ما حدث بالضبط .. لقد نظرت إلى حيث كانت بعد ما دوى الانفجار ، فرأت الرمال تتصاعد لعنان السماء كأنها بركان أصفر .. بعدها تصاعد الدخان الكثيف .. نظرت للسماء فرأت الطائرة تبتعد فى رضا بعد ما أنجزت مهمتها .. لابد أن طيارها يصدر الكثير من الـ (كيا ييى ى) والـ (واو) ..

ووثب (جيفارا) مذعورًا يصيح :

ـ « ماذا حدث ؟ »

قالت له باسمة :

ـ « لا شىء .. أجريت تجربة بسيطة ثبت أنها ناجحة .. عد إلى نومك وسأحكى لك كل شىء فيما بعد .. »

★ ★ ★

ـ « هذا الفتى عميل دسه الأمريكان ؟ »

- « منذ البداية كنت أتساءل عن سبب تناقص أزرار قميصه .. إنها أجهزة لاسلكى .. ينتزع الزر ثم يضغط على جزء منه بدبوس ليصير فعالا ويصدر إشارات منتظمة .. هذا الجزء ضرورى حتى لا يقتل الأمريكان عميلا لهم .. يلقى بالزر حيث توجد أنت وبعد هذا يكون عليه مغادرة المكان مسرعًا .. طائرة الأباتشى تطلق صاروخها بالضبط على الموضع الذى منه تأتى إشارات الزر .. هذه هى الدقة الجراحية التى يتكلم عنها العسكريون الأمريكيون .. هذا ما فعله من قبل وفشل وجربه اليوم فكاد ينجح .. »

- « هل كان هذا دليلك الوحيد ؟ »

- « فى البداية كان لديه ثلاثة أطفال .. اليوم قال إن لديه اثنين . كانت زوجته تدعى (زبيدة) ثم تحولت بمعجزة ما إلى (نهلة) .. كانوا يقولون لنا : (على الكذوب أن يكون ذكورًا) .. أى أن الكذاب يجب أن يتذكر جيدًا ما قال حتى لا ينفيه فى المحادثة التالية .. »

نزع (جيفارا) البيريه الذى يلبسه تحت غطاء الرأس العربى ، وحك رأسه وقال :

ـ « إنهم بارعون حقًا .. رتبوا أن يبدو لى رجلاً بلا حيلة فى مأزق خطير .. بهذا ما كنت لأتركه مهما حدث .. ومهمته كانت اختيار المكان والزمان المناسبين .. لقد اضطروا للتضحية ببعض رجالهم كى يبدو الأمر منطقيًا .. لكن لهذه القصة معنى واحدًا .. »

ـ « إنهم يريدون رأسك .. »

ـ « هذه من البديهيات .. ما أردت قوله هو إنهم حاولوا الوصول لواحد من رجالى بعد (إياد) فلم يقدروا .. هكذا صارت مهمتهم ضم عملاء جاهزين بدلا من تحويل رجالى لعملاء .. إن هذه أخبار طيبة وتعنى أننا قاعدة ثورية متينة .. »

وفجأة امتدت أصابعه لخصلات شعرها الملتفة على كتفها .. أصابها ارتباك شديد فتراجعت للوراء .. لكنه قال لها فى رفق :

ـ « أنت أنقذت حياتى بمزيج من شجاعة وذكاء .. قولى لى ما يمكننى عمله لأكافئك ! »

لم تكن هناك إجابات كثيرة ، لذا قالت له على الفور :

ـ « لا تلمسنى .. هذه مكافأتى الوحيدة ! »

٨ ـ عرض مغر ..

تلقى (مورتون) رجل المخابرات المركزية الخبر بمزيج من البرود والذهول والاشمئزاز .. مع نظارة كهذه لا يمكنك أن ترى انفعالاته أبدًا .. فقط خلجة عابرة على جانب فمه زادت ملامحه قسوة ، ثم سأل من جلب له الخبر :

ـ « متأكدون ؟ »

ـ « نعم يا سيدى .. لقد اتجهت فصيلة من رجالنا إلى المكان بعد القصف .. لم تجد سوى أشلاء لكنها تعرفت القميص والأزرار المثبتة له .. لقد كان هذا (غسان) .. »

ضغط على عضلات فكيه ، ثم عاد يسأل :

ـ « لا توجد أشلاء أخرى ؟ »

ـ « ما زالت نتائج الحمض النووى غير مكتملة لكننا نرجح أن هذه جثة شخص واحد .. »

ـ « ألم ترتكبوا خطأ ما ؟ ربما أرسل الزر إشارة لاسلكية قبل انتزاعه ؟ »

ـ « لا يمكن أن يرسل الزر إشاراته إلا بعد تنشيطه برأس دبوس .. أى أن الخطأ غير وارد .. »

ابتلع الخبر فى غيظ .. وتجعد جبينه قليلاً ..

الشياطين اكتشفوا الحيلة ودسوا زرًا فى جيب عميله الذى دسه على (جيفارا) .. لقد رسم الخطة على أن يصدر الأمريكيون أكبر ضجة ممكنة عندما يسمعون عن دنو (جيفارا) ورجاله من تلك البلدة .. نجح هذا الجزء تمامًا لكن محاولة قصف موضع الأزرار النشطة فشلت مرتين ..

لقد سخر منه (جيفارا) ..

لو كان أكثر احترامًا لقتل العميل رميًا بالرصاص ، لكنه فضل أن يقتله بطريقة فيها عدالة شعرية وسخرية لا شك فيها .. جزاء من جنس العمل ..

لقد تعكر مزاجه فلم يعد قادرًا على التفكير .. لقد انتهى اليوم ..

هكذا نهض وأعلن انه عائد إلى الفندق .. ربما تعيد بعض ساعات النوم لعقله نشاطه ..

إلى جوار السائق العراقى جلس وقال له بالعربية التى بدأ يجيد عبارات منها :

ـ « الفندق يا (كريم) .. »

كان ككل الغربيين يحذفون (عبد الـ) من الأسماء المعبّدة .. على كل حال تتحصر خبرة الغربيين بالأسماء العربية فى ثلاثة أو أربعة أسماء ..(أحمد) .. (قاسم) .. (كريم) .. الخ .. أما المتعاون معهم فهو دائمًا حسب قانون الأفلام (نسيم) بيه البدين الملتحى ذو البذلة البيضاء والوردة فى عروة السترة .. صورة تذكرك بالخديوِ (سعيد) كما كنت تراه فى كتب التاريخ ..

انطلق (عبد الكريم) مغادرًا المنطقة الخضراء يشق شوارع (بغداد) ..

كان (مورتون) يفكر فى عمق .. لم تعد هذه الحرب تعنيه فى شىء .. فقط هو مهتم بشخص واحد اسمه (سى عمارة) ، وهو لن يهدأ حتى يتخلص منه ، عندها تنتهى حربه الخاصة ..

سمع صوت البوق فرفع رأسه ..

لم تكن هناك حراسة ترافق العربة لأن هذه أسلم طريقة لتجنب الهجمات .. لقد تعلم الأمريكان أن الحراسة تجتذب المهاجمين كالذباب ، وقد تعرض (مورتون) لهجوم من قبل وكاد يفقد حياته ، فلم ينقذه إلا أنه لم يبد مريبًا .. ولو شعر المهاجمون بأنه بهذه الأهمية لاختطفوه فورًا ..

كان (عبد الكريم) يطلق البوق فى نفاد صبر كى ينتحى شاب نحيل يقف فى الطريق أمام السيارة ..

مد (مورتون) يده فى جيبه وأخرج مسدسه تحسبًا لما يحدث ..

رأى الشاب النحيل يدنو من زجاج السيارة ويدق زجاجها عدة مرات .. قال (عبد الكريم) :

ـ « لا تفتح له يا سيدى .. هذا كمين لا شك فيه .. سأنطلق حالاً .. »

لكن شيئًا فى مظهر الشاب ونظراته جعلت (مورتون) يمد يده لينزل الزجاج الكهربى بضعة سنتيمترات ..

الشاب عربى أسمر اللون حزين العينين ..وهو مثقل بمهمة خطيرة .. هذا واضح تمامًا .. المثقلون بمهمة خطيرة فقط يحملون هاتين العينين ..

قال الشاب وهو يرتجف كلمة واحدة :

ـ « (سى عمارة) ! »

لم يتكلم (مورتون) وظل يرمق الفتى .. فأردف هذا :

ـ « (سى عمارة) .. أنت تريده .. يجب أن تدعنى أركب فحياتى فى خطر داهم .. »

ضغط (عبد الكريم) على دواسة الوقود والسيارة فى وضع (المور) ، فتعالى زنيرها وهتف :

ـ « لا تطل الكلام معه يا سيدي .. »

لكن (مورتون) كان يمسك بالمسدس .. ماذا يمكن أن يحدث ؟ الشارع خال ويبدو آمنًا ..

ـ « ماذا لديك ؟ تكلم الآن .. »

ـ « أنا أستطيع أن أسلمك (سي عمارة) .. لكن لا تتركنى واقفًا بهذا الشكل .. إن هذا المشهد كفيل بقطع رأسى .. »

ـ « هل تعرف من أنا ؟ »

ـ « أعرف أنك رجل مخابرات مهم .. هذا كاف على ما أظن .. »

مد (مورتون) يده يفتح زر التأمين للشاب كي يجلس في المقعد الخلفي .. وقال :

ـ « اركب .. »

وثب الفتى ليستقر في المقعد الخلفي ، فانطلق (عبد الكريم) بالسيارة وهو لا يصدق أنه نجا حتى هذه اللحظة ، أما (مورتون) فاستدار من مكانه في المقعد الأمامي إلى الفتى وهو يصوب المسدس إلى رأسه :

ـ « ماذا لديك ؟ »

قال الفتى :

ـ « أنا من رجاله .. أعرف أين سيكون .. يمكنني أن أدس له وللرجال مخدرًا في طعامهم .. فقط لو وفرتم لي نوعًا جيدًا .. »

قال (مورتون) في برود :

ـ « لاحظ أنني لم أفتح فمي .. ربما كانت كل معلوماتك خطأ .. أنا مجرد مهندس اتصالات أمريكي .. »

ـ « وأنا مجرد طاه عراقي .. حسن .. شكرًا لوقتك .. فلنفترض أن هذه المحادثة لم تكن واسمح لي بالرحيل .. »

ومد يده إلى مقبض الباب ، لكن (مورتون) قال في عصبية :

ـ « ابق حيث أنت وأكمل كلامك .. »

تنهَّد الفتى وقال ضاغطًا على كلماته :

ـ « ما اطلبه هو الهجرة للولايات المتحدة .. أريد مبلغًا من المال أبدأ به حياتي .. هذا كل شيء .. »

ـ « أنا مصغ .. »

ـ « سوف تنفذون الجزء الخاص بكم بمجرد أن أنهي ما وعدت به .. سوف أضع ثقتي في حكومتكم .. وإلا فإنني سأخبر الصحافة بكل شيء .. »

ـ « يمكننا أن ننكر .. يمكننا أن نتخلص منك .. أنا لا أقول إنني سأفعل هذا ، لكن حديثنا كله قائم على افتراضات .. »

ـ « بهذا تضيع فرصة ممتازة للحصول على معلومات .. وفرصة الخلاص من كل هذه المجموعة مرة واحدة .. أنت رجل واسع الخبرة ولن تضيع فرصة كهذه .. »

كان (مورتون) يفكر في عمق عندما سمع الفتى يقول للسائق :

ـ « والآن اخرج من (بغداد) .. سأخبرك بنقطة التوقف .. »

هتف (مورتون) فى غيظ :

ـ « لحظة .. من الذى يصدر الأوامر هنا ؟ »

ـ « أنا ! »

قالها الفتى وهو يفتح قميصه .. عندها رأى (مورتون) الشىء الذى فهمه على الفور .. حول خصر الفتى حزمة من أصابع الديناميت تتصل بجهاز كهربى ما ، وفى قبضة الفتى استقر السلك الذى تكفى جذبة له كى ينفجر كل شىء !

* * *

٩ ـ العين بالعين ..

« الشعب الذى لا يعرف الحقد لا يستطيع الانتصار على عدو شرس متوحش »

تشى جيفارا

★ ★ ★

صاح (مورتون) وهو يلوح بالمسدس فى وجه الجالس فى المقعد الخلفى :

ــ « سوف أفجر رأسك ! من الخطأ أن تهدد خصمًا يلوح بمسدسه »

فى برود قال الرجل :

ــ « والأخطر أن تحاول قتل خصم يمسك بطرف الفتيل الذى يستطيع تفجيرك ! إن الموتى تتقلص أطرافهم ، ومعنى هذا أن احتمالات هلاكك كبيرة جدًا ! »

نظرة لعينى الرجل جعلت (مورتون) يدرك أنه صادق .. لقد تلاشت نظرة التوتر المذعورة لتحل محلها نظرة باردة قاسية تعرف ما تريد .. من الواضح أنه سوف يفجر نفسه بسهولة .. هؤلاء القوم لا يمزحون ..

لقد تصرف بحماقة مرة واحدة لكنها كانت كافية .. لقد أنساه مقته لجيفارا الحذر الثعلبى الذى تمسك به .. هنا سمع الرجل العربى يقول :

ـ « سأكون شاكرًا لو ألقيت بهذا المسدس من النافذة ، فهو يجعلنى عصبيًا .. »

هكذا طوح (مورتون) بالمسدس من الزجاج وهو يغلى غيظًا .. ليأمل أن يجد رجال الشرطة هذا المسدس فيما بعد فيقتفوا أثره ..

استرخى فى مقعده وقال لنفسه إنه مر بما هو أسوأ .. منذ أربعين عامًا يمر بما هو أسوأ .. سوف ينجو من هذا المأزق ..

الفتى يصدر تعليماته للسائق بالعربية .. بعض العبارات لا يفهمها (مورتون) لكنه قد أعد نفسه للأسوأ ..

وتعود به الذاكرة إلى جنوب لبنان أيام الحرب الأهلية ، عندما اختطف رجال حزب الله عميل مخابرات أمريكية . بل قائد المخابرات المركزية فى لبنان ، وقد حاول الرجل بتدريبه العالى أن يظل صامتًا لكنه فى النهاية لم يتحمل التعذيب واعترف بكل شىء ممكن .. وفى النهاية أعدم بطلقة فى الرأس ..

إن هذا السيناريو لا يبدو خياليًا لهذا الحد ..

إنهم يمرون بمجموعات من رجال الشرطة .. ثم يرى مدرعة أمريكية تقف إلى جانب الطريق وقد وقف جوارها جند أمريكان ينظرون للسيارة فى استرخاء .. ربما لو ..

من جديد قال الفتى الجالس خلفه :

- « هيا .. أنذرهم ! لن يحدث هذا أى فارق البتة إلا فى عدد القتلى .. أنت كما يبدو يا جنرال لا تستطيع فهم الحالة النفسية والروحية التى تجعل المرء يفجر نفسه .. لقد ودعت أطفالى وزوجتى و رتبت شئونى المالية .. أنا رجل ميت يمشى فلا تضغط على أكثر من ذلك .. »

قال (مورتون) :

- « أنا لست جنرالاً .. أنا مهندس اتصالات .. »

- « وأنا طاه .. طاه محشو بالديناميت .. »

ومن جديد راحت السيارة تنهب طريقها خارجة من بغداد إلى الضواحى .. فقط من حين لآخر ترى قطيع أغنام أو مدرعة أمريكية أو مجموعة من عمال الطريق يصلحون ما أتلفه انفجار سابق ..

استغرق الأمر نصف ساعة فى طرق وعرة ، وبناء على توجيهات الفدائى الجالس فى المقعد الخلفى ..

كان هناك كمين مكون من رجال الشرطة العراقية وثلاثة جنود أمريكيين ، وكان احتمال افتضاح الأمر كبيرًا ، لكن (مورتون) الذى تلقى تعليماته من المقعد الخلفى هز رأسه للأمريكيين الذين وقفوا فى غطرسة استعمارية إلى جانب الطريق .. النظارات السود والخوذات والبنادق ولفافات التبغ فى يد كل منهم ..

ـ « (هاودى) .. كيف حالكم يا شباب ؟ جو ممتاز للبيزبول ! »

ثم قدم بطاقته لأحد الجنود .. طبعًا كانت هذه لحظة ممتازة لعمل شىء لكنه كان بارد الأعصاب بما يكفى كى يقيم الموقف .. سوف يهلك فى جميع الحالات .. إذن لماذا يذهب إلى الجحيم مصطحبًا معه هؤلاء الشباب ؟ كان كفيلاً بأن يفعلها لو كان هذا يعنى نجاته ..

طبعًا كانت البطاقة تقول إنه مهندس اتصالات .. وقد نظر أحد الجنود إلى المقعد الخلفى حيث الفتى العراقى الذى يضم طرفى قميصه على جسده ، وقد رسم على وجهه أعتى آيات الظرف والاسترخاء ، وقال :

- « هل من مشكلة يا زميل ؟ لماذا يجلس هذا هنا ؟ »

- « إنه الطاهى الجديد .. نصحونا بألا نجلس فى المقعد الخلفى مهما كانت الظروف .. »

- « طاه عراقى ؟ إذن خذ الحذر ..هؤلاء القوم يضعون الكثير من الكارى فى الطعام .. »

بالطبع هو يخلط بين عادات العرب والباكستانيين ..

من جديد واصلت العربة طريقها وسط الطرق التى صارت مقفرة ..

وفجأة وجد (مورتون) لجنة الاستقبال بانتظاره .. خمسة رجال ملثمين يقفون بعرض الطريق شاهرين أسلحتهم .. وسرعان ما وجد نفسه فى سيارة (لاند روفر) .. هذه المرة هناك كيس على رأسه .. فقط سمع الرجال يقولون للسائق (عبد الكريم) :

- « عد أدراجك واخبرهم أن رئيسك قد اختطف .. أنصحك ألا تتعامل مع الأمريكيين ثانية ، لأنه لو كنا فصيلة مقاومة أخرى لأعدمناك .. »

وانطلقت السيارة تاركة السائق العربى واقفًا فى ذهول ، لا يصدق أنه نجا ..

* * *

لم تكن هناك أية شكوك لدى (مورتون) فى الشخص الذى سيقابله .. فصيلة المقاومة الوحيدة التى ستستدرجك عن طريق (جيفارا) هى فصيلة (جيفارا) ..

على أنهم فى البداية أوقفوه فى مكان وسط الصحراء ، وأرغموه على التجرد من ثيابه حيث أجروا له تفتيشًا ذاتيًا دقيقًا ثم جعلوه يلبس ثيابًا جديدة تخصهم .. كانوا على يقين من أنه يحمل جهاز متابعة بشكل ما .. وهكذا قرروا أن يلغوا هذا الاحتمال تمامًا ..

إنهم يعرفون من أنا .. ويعرفون أننى أريد (جيفارا) أكثر من أى شخص آخر .. لكن كيف ؟

يمشى معصوب العينين حافى القدمين على الرمال الساخنة ، ليركب السيارة من جديد ..

رحلة استغرقت ساعة أم عدة ساعات ؟ وفى النهاية أمروه بأن يترجل .. يمشى على أرض ساخنة .. مدخل بناية .. رطوبة .. رائحة سيجار .. ثم يد تنزع الكيس عن رأسه ..

وعلى الفور رأى (جيفارا) أمامه ..

كان المكان أقرب إلى قاعة فى مدرسة .. هناك خرائط على الجدران ولوح كتابة .. (جيفارا) يجلس على مكتب المعلم والسيجار فى فمه يمضغه فى تلذذ .. وجواره كانت (عبير) ترمق الضيف الجديد فى حيرة ..

قال التشى بالإنجليزية فى تهذيب لا سخرية فيه :

- « لا تؤاخذنى .. لقد تعلمنا طريقة الكيس على الرأس هذه منكم .. »

قال (مورتون) الذى احتفظ برباطة جأشه :

- « ونحن تعلمناه من الجيش الجمهورى الأيرلندى IRA .. إن تأثيره النفسى مخيف .. يشعرك بالعجز التام .. »

قال (جيفارا) وهو يطلق سحابة دخان كثيفة :

- « أنت صيد ثمين .. نحن نعرف من أنت ولماذا جئت .. »

- « هل لى أن أعرف كيف ؟ »

- « إن رجلكم الذى كلفته بتسميم الكبسولات قد حكى لى الكثير عنك .. وقد راقبنا القاعدة عدة أيام بوسائلنا الخاصة حتى رأيناك .. عرفناك من الأوصاف وعرفنا سيارتك وفندقك .. ما بقى كان سهلا .. فقط راهنت على أن حماسك للقبض على سوف يجعلك تنسى واجب الحذر ، وقد كان .. إن المخابرات لعبة لاثنين .. »

ثم أشار لأحد رجاله فجلب مقعدًا وكأسًا من عصير البرتقال للرجل .. وأردف :

ـ « ليست لدينا مشروبات روحية لأنها ممنوعة .. »

ظل (مورتون) ينظر له فى ثبات .. ثم قال كالحالم :

ـ « التقينا من قبل فى (بغداد) لكنك لم تلق بالاً لى .. إلا أنى لم أنس وجهك .. »

قال (جيفارا) :

ـ « بالنسبة لى يتشابه الأمريكيون .. وأخص العسكريين منهم .. نفس الوجه الجاف الصارم وقصة الشعر والقدرة على ذبح الأطفال بلا تردد .. هل تعرف أنك تمثل كل ما أكرهه فى هذا العالم ؟ الإمبريالية الأمريكية صار لها رأس وقدمان وتجلس على مائدتى الآن .. »

لم يعلق (مورتون) وظل يرمق التشى فى انبهار :

ـ « مذهل .. كأننى أعود بالزمن إلى الستينات .. السيجار .. نظرة الحالم الذى لا يعى شيئا عن العالم الحقيقى . البذلة العسكرية والحذاء (الميرى) .. كنت أنت رمزًا لكل ما نكرهه كأمريكيين .. »

- « نحن متفاهمان إذن .. »

شرب (مورتون) ما فى الكأس مرة واحدة ثم قال :

- « لكن الوضع اختلف .. لا يوجد اتحاد سوفييتى ولا صين .. الماركسية قد انتهت من العالم .. يجب أن تعرف أنك وحيد تمامًا وأن فرصتك فى النجاح صفر .. ما الذى تحاول إثباته ؟ »

قال التشى :

- « إن أمانينا فى النصر هى تدمير الولايات المتحدة الأمريكية .. إكراهها على أن تقوم بنضال صعب على أرض معادية لها .. معنى هذا أن أمامنا حربًا طويلة مريرة .. أنتم خسرتم الحرب فى فيتنام بكل ما لديكم من جبروت .. تخسرون كل يوم فى العراق .. لقد أصيبت كبرياؤكم بضربة قاصمة وعليكم أن تعرفوا أنكم لا تستطيعون إرغام قط على أن يصير كما تريدون له .. »

- « هذا ما تعتقده .. »

ظل (جيفارا) يعبث فى بعض الأوراق أمامه ثم قال :

- « طبعًا أنت تقدر موقفى .. لن أترك صيدًا ثمينًا مثلك من دون معرفة كل شىء يعرفه .. »

ـ « هل ستعذبنى ؟ أنا مدرب جيدًا لتحمل هذه الأمور .. لاحظ أننى رجل مخابرات منذ عام ١٩٧٥ .. لو كانت أكثر عملية فى تفكيرك لأفرغت الرصاص فى رأسى هنا والآن »

ـ « لدينا أساليب جيدة للتعذيب تختلف عن انتزاع الأظفار والحرق .. آسف يا رفيق .. لكنى أحاول أن أؤدى عملى .. »

ـ « وأنا أحاول أن أمنعك من ذلك .. »

التفت (تشى) إلى أحد رجاله و أصدر أوامره :

ـ « خذوه وقيدوه فى القبو .. سيكون هناك رجل بجواره طيلة الوقت مهمته أن يمنعه من النوم .. يركله .. يلسعه .. يسكب الماء على رأسه .. المهم ألا ينام لحظة واحدة .. بعد ثلاثة أيام سيكلمنا عن تدريب المخابرات الرائع الذى تلقاه .. »

* * *

١٠ـ قســوة ..

بالنسبة لـ (مورتون) لو كان هذا اسمه صارت الساعات التالية لحظة طويلة أليمة .. كان قد سمع عن هذا النوع من العقاب ، ويعرف أن النازيين هم مبتكروه ، لكنه لم يتصور أنه بهذه البشاعة ولا القسوة .. وبدا له أن انتزاع عينيه للعب تنس الطاولة بهما قد يكون أقرب للإنسانية ..

هو الآن جالس إلى مقعد فى ذلك القبو ، وقد ربطت يداه إلى خلف ظهره مع تثبيت قدميه .. من حين لآخر يدسون شيئا يؤكل بين شفتيه أو يصبون الماء صبًا بينهما .. ليس الموت جوعًا أو عطشًا ضمن برنامج اليوم إذن ..

إن جفنيه يثقلان .. يوشك على أن يغمضهما فيتلقى ضربة فى كتفه .. يفتحهما فى ذعر ، ثم تغلبه الرؤى فيثقلان من جديد .. هنا تأتى صفعة من مكان ما .. ضوء ساطع يخترق جفنيه فلا يستطيع غلقهما لو حاول ..

تدريجيًا كون نوعًا من الانعكاس الشرطى كالذى وصفه الخواجة (بافلوف) .. كلما غلبه النعاس صحا مذعورًا لأنه ربط بين النعاس والصفعة ..

العالم تحول إلى ضوء ساطع وإلى أشباح تتراقص هنا وهناك .. ولم يدر أنه يفقد عقله إلا عندما رأى نفسه يتقدم نحوه وهو يضحك وقد دس يديه فى جيبه .. لحظة لقاء النفس الشهيرة فى قصص (دستويفسكى) .. لم يكن متدينًا أو يؤمن بالروح ، لكنه شعر بأن هذا نذير وفاة ..

أخيرًا وصل إلى حالة من فقدان التمييز التام لما يدور حوله .. يسمع كلامًا فلا يعيه .. يرى أشياء فلا يفهم ما هى .. لا يعرف إن كان ميتًا أم حيًا ..

* * *

فى الحقيقة كان يومان قد مضيا على (مورتون) وهو فى هذا العذاب .. فقط كان الرجال يتناوبون عليه .. من آن لآخر يأتى رجل عصابات نضر منتعش كالزهرة ويقف جواره على حين ينصرف زميله لينام ..

وكان (تشى) يدخل المكان من حين لآخر كى يرى ما وصلت إليه الأمور ، وتطوع مرة بأن يلسع (مورتون) بسيجاره المشتعل ليوقظه .. طبعًا نسى (مورتون) هذا على الفور ..

قالت (عبير) وهى ترتجف :

- « هذه قسوة .. يخيل إلى أن الذبح كان أكثر رحمة .. »

قال (تشى) وهو يرمق المشهد :

- « عندما تنظرين له ترين رجلاً يتعذب .. أنا أنظر له فأرى أطفال هيروشيما المحترقين ، والهنود الحمر الذين ألقى بهم فى الثلوج عراة ، وأطفال أمريكا اللاتينية الذين يتسولون فى الشوارع وتعدمهم حكومة البرازيل كالكلاب ، وأرى كل ضحايا فلسطين ، وكل قتلى العراق .. صدقينى .. لا أعتقد أننا قساة على الإطلاق بل هو نوع من التدليل .. »

ثم انحنى على الرجل الجالس الذى لم تعد عيناه تريان تقريبًا برغم أنهما مفتوحتان ، وقال :

- « لا أريد أن تفقد عقلك لأن هذا سيجعل اعترافاتك بلا قيمة .. هل أنت مستعد للكلام ؟ »

من بين شفتيه همس الرجل :

- « اذهب للجحيم .. »

- « هذه ليست إجابة .. »

- « ماذا تريد أن تعرف ؟ »

ابتسم (جيفارا) وقال فى رفق :

ـ « كل شىء .. من أنت فعلاً .. رتبتك .. العمليات التى قمت بها .. خططكم .. اتصالاتكم .. ماذا تعرفون عن قوى المقاومة العراقية الأخرى .. ماذا تنوون عمله فى المستقبل ؟ هل هناك ترتيبات انسحاب ؟ ما دورك فى موت (جيفارا) عام ١٩٦٧ ؟ »

صمت (مورتون) قليلاً ، ثم قال فى تعب :

ـ « هل سوف تسمحون لى بالنوم بعدها ؟ »

أشعل التشى سيجاره الشهير وقال بلا سخرية :

ـ « سوف تنام كثيرًا جدًا .. ربما للأبد .. »

لكن (مورتون) كان منهكًا إلى حد أنه لم يبال بالتهديد .. فليكن ما يكون .. المهم أن يريح رأسه فى وضع أفقى ويغمض عينيه ويسمح لأجنحة الحلم أن تحمله إلى أرض (أبدًا أبدًا) كما يقول الأمريكيون ..

لقد نالوا منك بحق يا (جيمس) .. لقد عرفوا كيف يهزمون روحك ..

★ ★ ★

وهكذا مضى يومان وهو يثرثر بلا انقطاع .. صحيح أنهم سمحوا له ببعض النوم ، لكنه ظل يتكلم حتى لا يعاودوا العقاب ..

الطريف أنهم جعلوه يعيد اعترافاته عدة مرات بحثًا عن تناقض .. وكان رجل عربى يدون كل حرف يقول ..

فى النهاية سأله (جيفارا) :

ـ « هل من شىء تضيفه ؟ »

ـ « لا .. هذا كل شىء .. »

لم يدر إلا وفوهة المسدس تلتصق بصدغه .. وسمع التشى يقول :

ـ « بناء على حكم المحكمة الثورية فإننى سوف أنفذ حكم الإعدام فيك لأنك عميل الإمبريالية .. ولأنك قضيت حياتك تحارب قوى التحرر .. »

لم يبال (مورتون) بحيثيات الحكم .. المهم أن ينتهى وينام ..

فقط رفع رأسه ، وقال فى شىء من السخرية :

ـ « أنت دعابة لا أكثر ولسوف تلحق بى سريعًا يا صديقى .. »

ـ « ربما .. لكنك لن ترى هذا .. »

وانطلقت الرصاصة ..

كانت (عبير) تبكى وترتجف ، بينما قال (جيفارا) للرجال :

ـ « تخلصوا من الجثة .. يجب أن يجدوها وأن تكون عبرة .. وأرجو أن ينظف أحدكم هذا الدم .. »

ثم نظر إلى (عبير) الباكية وقال :

ـ « (ماريا) .. إن بعض القسوة يكون أدل على الرحمة من التدليل الأبله .. الذئاب يجب أن تقتل على الفور .. »

لكنها لم تستطع أن تبعد المشهد عن مخيلتها ..

قاس هو (جيفارا) .. قاس وحازم وصارم .. هكذا قال عنه الجميع حتى إن رفيق عمره (كاسترو) كان يندهش من عنفه أحيانا ..

لكنها سمعت صوت الصفير المتصاعد من رئتيه .. رأت تلك الرجفة فى يده فأدركت أنه ليس متحجر المشاعر إلى هذا الحد .. هو لا يستمتع بما يقوم به لكنه يشعر بأنه يجب أن يفعله ..

* * *

١١ـ لا نريدك هنا ..

« انتصار أى بلد على الإمبريالية هو انتصار للجميع ، وهزيمة أية أمة أمامها هزيمة للجميع .. »

تشى جيفارا

* * *

. لم يعلق الأمريكيون على العثور على جثة رجل المخابرات الأمريكية المهم إلى جوار الطريق ، وقد اخترقت صدغه رصاصة .. هذه أخبار لا تذاع ولا تنقل للوطن .. فقط ازدادت الحملات شراسة وقد عرفوا بالطبع من السائق (عبد الكريم) الذى عاد مذعورًا الجهة التى اختطفت رجلهم .. ما دام الفخ كان باسم (سى عمارة) فلا يصعب استنتاج الجهة المدبرة ..

كان التشى يقيم مع رجاله العشرة فى بيت فلاح عراقى يدعى (جاسم) .. كف عن الحركة لبضعة أيام على سبيل الحذر ، لكن ابن الفلاح كان مثقفًا قرأ عن بطولات (سى عمارة) ونكره جدًا بـ (جيفارا) الحلم الثورى القديم .. لهذا عرض على المجموعة أن تقيم فى بيت أبيه ..

كانت هناك حظيرة مليئة بالقش ، ولم تكن هناك مواش فى الدار .. لذا أمكن للثوار أن يقيموا فيها بضعة أيام .. وبالطبع كان هذا سجنًا اختياريًا تامًا لأن أحدهم لم يكن يخرج .. الطعام كان يأتيهم حيث هم ومعه الصحف .. لكن لا خروج .. إن عملاء الأمريكيين يبدون مثلنا تمامًا .. ولن تعرف أبدًا متى تقع عينا واحد منهم عليك ..

قال (جيفارا) لـ (عبير) :

ـ « ليس الموضوع موضوع عمالة فحسب .. إن المستعمر يكون قاسيًا جدًا على الأهالى ويعرف كيف يثير رعبهم .. وهم مدنيون مسالمون ، لذا يسهل الضغط عليهم .. ليس كل من يفضح أمرك خائن واش .. ربما كان مذعورًا .. ربما يخشى على أسرته .. »

ثم أردف بعد تفكير :

ـ « هؤلاء يجب أن نعاملهم بأكبر قدر من الرفق واللين .. يجب أن يكون هناك فارق واضح بين معاملتك للمستعمرين والخونة التى يجب أن تكون وحشية ، وبين معاملتك للأهالى التى يجب أن تتسم باللطف والتهذيب .. »

كان يتكلم طيلة الوقت وبلا انقطاع ..

صار رأسها على وشك الانفجار ، وهو لا يكف عن إقامة الندوات فى الحظيرة وتثقيف الثوار عن الاستعمار والماركسية والإمبريالية والحتمية التاريخية .. يقول هذا كله وهو يدخن السيجار فى نهم .. أيام وأيام .. ليال وليال ..

هذا الرجل لا يتعب ..

على أنها نامت ذات ليلة وصحت من نومها على رائحة الحريق ..

رمشت بعينها لترى الرجال يركضون هنا وهناك .. الزهرة البرتقالية تلتهم المخزن والدخان يجعل الرؤية شبه مستحيلة .. ثمة يد قوية أطبقت على معصمها وجرتها وسط الدخان إلى الخارج حيث الليل البارد .. إنها لا تحلم إذن بل هو حريق فعلاً ..

هناك ترى الرجال يصرخون ويحملون دلاء الماء .. النار تتعالى ..

أين التشى ؟ هو ذا يقف وسط الرجال ويصدر لهم التعليمات .. يريد أن يكونوا صفاً بأجسادهم كى ينتقل

الدلو من يد ليد .. لا داعى لإضاعة الوقت فى الركض يمينًا ويسارًا ..

هكذا ..

فقط سمعت أحد الرجال يقول لصاحبه :

ـ « سيجار (سى عمارة) .. أنذرته من قبل أننا فى حظيرة مليئة بالقش ، لكنه لا يستطيع التوقف .. »

ببطء بدأت النار تعلن عن هزيمتها .. لكنها أعلنت ذلك مع كثير من الدخان الذى تعالى لعنان السماء .. وحمدت (عبير) الله على أنهم تنبهوا .. كان من الممكن أن تحترق أثناء نومها فلا تفهم إلا فى اللحظة الأخيرة ..

أخيرًا وقف الرجال مبللين بالعرق والماء ، والدخان يتصاعد من شعورهم وشواربهم .. كانوا يلهثون ..

ومن وسط الصفوف ظهر ذلك الفلاح العراقى العجوز .. إنه (جاسم) .. شارب أبيض كث وغطرة على رأسه وسترة فوق الجلباب .. إنه غاضب بحق ..

يتقدم حتى يقف أمام (جيفارا) ثم يقول فى حزم :

ـ « قلت لكم مرارًا أن تتوخوا الحذر أثناء التدخين .. »

لـم يتكلـم (جيفـارا) .. اكتفـى بـأن يمضـغ سـيجاره الذى أطفأته النيران ..

ـ « لقد تفحمت الحظيرة وكدنا نتفحم نحـن أيضًـا .. قلت لهذا الأحمق (على) إنكم ستجلبون لنا المصائب ، لكنه كان مصرًا .. الآن يمكننـى أن أقـول لـك بحـزم إن عليك أن ترحل .. لا أدرى إن كان بوسعى أن أقول هذا لرجل مدجج بالسلاح ، لكنى اقتربت من القبر جـدًا ولـم يعد يخيفنى أن تختصر لى الخطوات الباقية .. »

قال التشى فى تهذيب :

ـ « هذا من حقك .. لكن هل تريد أن نرحل فعلاً ؟ »

ـ « أنا لا أمزح .. سنى لا تسمح بذلـك يـا ولـدى .. يجب أن تعرف أننا لا نرحب بك هنا وإنك تبدو لـى أقرب إلى مهرج .. »

نظر (جيفارا) لرفاقه نظرة ذات معنى .. كان أكثرهم قد استنفذ سـلاحه ومتـاعـه فلن يستغرق الأمـر وقتًا طويـلاً فى الرحيل .. لكن الفلاح عاد يقول :

ـ « الناس لا تتعاون معك لأنها تحبك .. إنها تخشاك .. أنت غريب عنا وعن عاداتنا .. ونحن لا نريد غريبًا كى يأتى ليحرر لنا أرضنا .. »

فلو كان (جيفارا) ذا ثقافة عربية لقال : « رب اغفر له فإنه لا يعلم » ، لكن نظراته قالت شيئًا كهذا على كل حال ..

فقط نظر إلى رجاله وقال :

ـ « فلنجد مكانًا آخر يا رجال .. »

وهكذا ابتعد الجمع المنهك عن الحظيرة التى تحولت إلى كتلة من الفحم.

صف من الأشباح يمشى فى الظلام إلى لا مكان ..

★ ★ ★

كانت السيارة المدرعة الأمريكية تنطلق على ذلك الطريق قرب (اليوسفية) جنوبى (بغداد) .. ووسط أشجار النخيل المتشابكة وقف (جيفارا) مع رجاله و(عبير) ينتظرون اللحظة الحاسمة ..

إنه لا يستعمل الألغام لكنه يستعمل طريقة الأسلاك المتصلة بعبوة ناسفة .. وكان التوقيت مهمًا جدًا ..

عشرة أمتار .. خمسة .. سوف ينتقل هؤلاء اليانكى إلى العالم الآخر قبل أن يعرفوا كيف انتقلوا .. احبسوا الأنفاس يا شباب ..

يد (فادى) تمتد إلى الشاحن .. إن هى إلا لحظة و ...

بوووووم !

دوى الانفجار المروع فارتج النخيل وأحشاء (عبير) ، ولولا أن هذا مستحيل لقالت إن السماء ذاتها ارتجت .. لم تكن تعرف أن العبوة بهذه القوة .. وإلى عنان السماء تصاعد الدخان الأسود الكثيف ..

فى رضا ابتسم (تشى) وأشار لرجاله كى يلحقوا بالعربة بحثًا عن شىء يمكن الاستفادة به ، وإن بدا هذا مستحيلاً ..

هنا التفت له (فادى) فى حيرة وهمس :

ـ « أنا لم أضغط ! »

ـ « ماذا تعنى ؟ »

ـ « كانت العربة تبعد مترين عن مكان عبوتنا ! »

ـ « إذن ؟ »

وسرعان ما هرع الرجال إلى حيث تقف العربة المتفحمة والحرارة المتصاعدة منها تجعل الدنو مستحيلاً ..

هنا برز من وراء أشجار النخيل ثلاثة رجال ملثمين يلبسون السواد .. كانوا مسلحين وأحدهم يحمل كاميرا فيديو صغيرة ..

هتف أحدهم بلهجة عراقية واضحة وبشيء من الغلظة :

ـ « ماذا تعملون هنا ؟ »

قال (تشي) وهو يزيح اللثام عن وجهه :

ـ « هل لي أن أسألكم نفس السؤال ؟ »

ـ « إن مظهرنا لا يحتاج لشرح .. لقد داست العربة على اللغم الذي زرعناه إلى جانب الطريق .. نحن نحاول التقاط صورة للمركبة كي نضعها على شبكة الإنترنت .. »

ـ « مصادفة غريبة لأننا زرعنا عبوة ناسفة على بعد مترين ! »

تأمله أحد الرجال في عمق من وراء اللثام ثم قال :

ـ « أنا أعرفك .. أنت ذلك الأجنبي .. الذي يطلقون عليه (سي عمارة) .. أنتم الذين ذبحتم رجل المخابرات الأمريكي .. »

قال (جيفارا) فى كبرياء :

– « أعدمناه لكن لم نذبحه .. »

قال الرجل :

– « نعم .. أنت تحدث الكثير من البلبلة .. الناس تسمع عن العملية فلا تعرف إن كان المهاجمون قد قاموا بها أم أنت .. »

– « المحصلة واحدة .. إن الأمريكيين يموتون .. »

قال الرجل بينما رفيقاه يلتقطان صورًا للسيارة المحترقة :

– « دعنا لا نطل الوقوف هنا فلسوف تصل (البلاك هوك) حالاً .. فلنتوار بين الأشجار .. »

هكذا انسل الجميع إلى ما وراء حزام النخيل .. وبالفعل تعالى هدير المروحيات خلال دقائق ..

قال الرجل الملثم :

– « دعنى أقل لك شيئًا ولتتذكره جيدًا .. أنت تقاتل بأساليب مختلفة غريبة .. كلامك غريب وأفكارك أغرب ..

لقد ولى هذا العهد الذى تتكلم عنه .. المناضل اليوم صار اسمه (مجاهد) .. أنت أجنبى تختلف عنا فى الجنسية والدين واللغة وكل شىء .. لا مكان لك هنا .. »

قال (جيفارا) وقد بدأ صفير صدره يتعالى :

ـ « كنت أفكر فى نوع من التحالف أو تنسيق الجهود .. لقد فشلت فى الاتصال بكم منذ جئت هنا .. »

ـ « لن يكون هناك تنسيق جهود .. لا أحد سوف يتعاون معك .. أنصحك بأن ترحل .. »

ثم لوح ببندقيته الآلية فى الهواء وأردف :

ـ « فى اللقاء القادم سوف نكف عن اعتبارك رفيق كفاح ونعتبرك خصمًا .. سوف نقاتلك وأنا لا أقول هذا على سبيل التخويف لكنها الحقيقة .. لن نترك أجنبيًا يخوض لنا حربنا .. »

ـ « كنت أحسب بينكم أجانب .. »

ـ « ليس بيننا أجانب .. هناك عرب غير عراقيين .. لكننا لا نرحب بقدوم أرجنتينى ليعلمنا كيف ندافع عن أنفسنا .. »

ثم صاح فى الرجال :

- « هيا بنا ! »

والتفت إلى (جيفارا) قائلاً :

- « فى المرة القادمة سيكون الحوار بطلقات الرصاص ! »

وسرعان ما توارى الرجال وسط الأشجار الكثيفة ..

★ ★ ★

نام الرجال ونامت (عبير) ، لكن (جيفارا) ظل يرمق النار لفترة طويلة والسيجار بين شفتيه ..

صحت فى الثانية صباحًا شاعرة بالظمأ ، فرأته جالسًا حيث هو يرمق النار مفكرًا ..

على ركبتيها دنت منه ووضعت يدها على كتفه فلم يلتفت ..

- « ما بك ؟ »

قال دون أن ينظر لها :

- « ما الذى أفعله هنا ؟ »

- « تحارب الأمريكان طبعًا .. »

- « لا أحد يريدنى . لقد تغير الزمن كثيرًا جدًا .. »

كانت تسترجع محادثتها السابقة معه منذ شهر .. وذكرته بها :

« اسمعنى .. هذه الأيديولوجية انتهت .. لقد تلاشى الاتحاد السوفييتى ، والصين لا تريد أن تتورط فى مشاكل لأنها منهمكة بنهضتها الاقتصادية .. لم تعد هناك سوى دولة واحدة قوية هى الولايات المتحدة .. كان بوسع حركات التحرر فى الماضى أن تعتمد على الاتحاد السوفييتى والصين .. كانوا يقاتلون فى فيتنام والشرق الأوسط بالسلاح السوفييتى .. الأيديولوجية التى كنت تحارب من منطلقها قد تلاشت .. اليوم لم تعد هناك مرجعية للقتال فى العراق إلا من منظور إسلامى ويبدو أن هذه هى المقاومة الوحيدة الفعالة حاليًا .. هناك قوميون عرب لكن عملياتهم لا قيمة لها تقريبًا .. دعك من أنك أجنبى ولن يثق بك أحد .. لا مكان لك هنا ولن يصغى أحد لأحلامك عن اتحاد الشعوب المطحونة .. من المستحيل اليوم أن تقنع شابًا ألمانيًا بالقتال فى التبت

لتحريره من الصين .. أنت رومانسى .. وككل رومانسى أنت ترفض الزمن الحالى .. ترفض الواقع .. والواقع يقول إنه لا مكان لك .. »

ثم أردفت :

ـ « لا أقول هذا لأخبرك كم أنا عبقرية .. لا أقوله على سبيل التشفى من منطق (ألم أقل لك ؟) .. فقط أذكرك بأنك كنت تعرف هذا كله من قبل فماذا استجد ؟ »

قال فى ضيق :

ـ « منظر ذلك الفلاح العراقى العجوز وهو ينظر لى بكراهية .. بالفعل كان يمقتنى .. لقد جئت هنا لأحرره فإذا بى أزيد حياته صعوبة .. إن سيناريو ما واجهه (جيفارا) فى بوليفيا يتكرر .. »

ـ « فيم تفكر ؟ »

نظر لها وعيناه تلمعان فى اللهب ، وقال :

ـ « سوف أخبرك قريبًا ! »

* * *

١٢ـ الرحيـــل ..

« لنا أصدقاء كثيرون .. لكن ليس بين الحكومات .. إن أصدقاءنا فى صفوف الشعوب .. »

تشى جيفارا

* * *

فى الصباح الباكر يغسل الرجال وجوههم ويتناولون البسكويت الجاف ..

إنهم يتخذون مقرهم فى بعض الخرائب كالعادة .. وهى عملية معقدة تعلموها من (جيفارا) أو (سى عمارة) حيث يجب انتقاء مكان يصعب حصاره .. لابد من مخرج للفرار .

كانت (عبير) تغسل وجهها بدورها عندما فطنت إلى أنها لا ترى (جيفارا) ..

لقد تركته فى الثانية صباحًا جالسًا أمام النار يدخن .. لكنها غابت فى نوم عميق فلم تدر ما حدث بعدها ..

كان ككل مرضى الربو مولعًا بالهواء الطلق .. لا يطيق الجدران تخنق رئتيه ، لذا خرجت لتلقى نظرة فى الخارج .. لا أثر له ..

عادت إلى الداخل وسألت (فادى) عما إذا كان رآه ، فقال بلهجة غامضة :

ـ « لا .. »

ـ « ألا تبحثون على الأقل ؟ »

لكنه ظل صامتًا .. كأنه يفكر فى الخطوة التالية ولا يجد الشجاعة كى ينفذها ..

فجأة تقدم (فادى) ليقف وسط الرجال وقال بصوت عال :

ـ « بما أن التشى قد رحل ، فإننى الآن أملك صلاحياته كاملة .. وأنا مسئول عن هذه الخلية الثورية ! »

الكل بدوا على علم بما يحدث فيما عداها .. ما معنى هذا ؟ هل رحل التشى ؟ أين ؟ متى ؟ لقد كان جالسًا يتكلم منذ ساعات لا أكثر ..

ثم بدأت تتذكر شيئًا ..

ـ « فيم تفكر ؟ »

ـ « سوف أخبرك قريبًا ! »

ما الذى خطر له وهو يتأمل النار ؟ إنه حصان جامح وأفعاله قد تسبق أفكاره أحيانًا ..

قال لها (فادى) وهو يفتش فى جيبه عن شىء ما :

ـ « لم يصدر لى التشى تعليمات إلا أن أواصل ما بدأه ، وبالطبع أعطانى كل ما لديه من معلومات انتزعها من رجل المخابرات المركزية .. بخصوصك طلب أن نوصلك إلى أقرب مكان يمكن أن يجدك فيه الأمريكيون .. هم لن يؤذوك لكن سيقومون بترحيلك ! »

ـ « عم تتكلم ؟ »

كان قد وجد ما يبحث عنه .. رسالة مطوية فى مغلف .. ناولها إياها وقال :

ـ « هذه رسالة تركها لك .. إنها بالإسبانية فلم أفهم حرفًا .. أرجو أن تقرئيها وأن تخبرينا بما يخصنا منها .. »

تناولت الورقة فى تردد وجلست على مجموعة من قوالب القرميد وراحت تقرأ :

« ماريا :

« فى هذه اللحظة أذكر أشياء كثيرة . أذكر لقاءنا وحين قررت الانهماك فى التأهب والاستعداد .. لقد سئلنا ذات يوم عن الشخص الذى ينبغى إبلاغه فى حالة وفاتنا ، وقد اعترتنا الدهشة لأنه لم يخطر ببالنا شىء كهذا من قبل .. ثم أدركنا أن هذا وارد وأن الإنسان فى حالة الثورة إما أن ينتصر أو يموت .. وقد سقط كثير من رفاقنا فى طريق النصر .. »

« لم تكن (عبير) تدرك أن نص هذا الخطاب محفور فى ذهنها ، لأنه الخطاب الذى كتبه (جيفارا) الأصلى لوداع رفيق كفاحه (كاسترو) .. لقد اكتسب (جيفارا) أشياء كثيرة من جده الجينى ومن بين هذه الأشياء الأسلوب .. هو ذا يستعمل لا شعوريًا ذات الأسلوب الخاص به ..

« الآن استأذنك يا (ماريا) فى الرحيل وأستأذن الرفاق .. وأقول لكم جميعًا : وداعًا ..

« إنى أتخلى رسميًا عن مهامى فى قيادة الخلية الثورية .. حينما أستعرض الأيام الماضية أعتقد أننى عملت بأمانة وإخلاص فى سبيل دعم الثورة ، لكنى أشعر بأن

دورى انتهى فى العراق وإنه لم يعد لى مكان هنا .. إن بلادًا أخرى كثيرة تحتاج إلى جهودى المتواضعة وأنا أستطيع القيام بذات الدور فى مكان آخر.

« إننى راحل وأنا أشعر بمزيج من المسرة والألم ، وأنا أترك ورائى هنا أعظم آمالى فى التشييد والبناء . وأترك أعز أحبائى الأمر الذى يمزق نفسى .. لكننى سأحمل معى هذا الإيمان الثورى والرغبة فى الكفاح ضد الامبريالية حيثما وجدت ..

« فإلى النصر دائمًا أو الموت ..

« أعانقك بكل ما أملك من حرارة ثورية .. »

انتهت الرسالة فطوتها (عبير) وشعرت بأنها لا تتمالك نفسها.

لقد بكى (كاسترو) عندما قرأ رسالة مماثلة وهى ليست أفضل منه حالا ..

هكذا تهاتفت بالبكاء ، ثم راح الدمع يسيل من عينيها فأنفها ..

دنا منها (فادى) ووضع يده على كتفها فهمست :

- « إلى أين ؟ »

- « إلى أين أى شىء ؟ »

- « إلى أين رحل ؟ »

- « لم يقل ولم يجسر أحد على سؤاله ، لكننا سننفذ وصيته ونستمر فى الكفاح .. »

- « ألن نلحق به ؟ »

- « من العسير أن نتمكن من ذلك .. ربما كان فى بيت مهجور أو فندق . ربما كان فى الطائرة أو عربة تجتاز الحدود .. دعك من أنه لا يريد ذلك .. »

لكنها وقفت تفكر وهى تجفف عينيها من حين لآخر ..

« إن بلادًا أخرى كثيرة تحتاج إلى جهودى المتواضعة وأنا أستطيع القيام بذات الدور فى مكان آخر »

إنها ليست معتوهة أو متخلفة عقليًا ..

لا يصعب عليها استنتاج الباقى ..

★ ★ ★

١٣ ـ إنـه هنـا ..

تأمل ضابط المطار جواز سفرها :

ـ « (ماريا جونزاليس) .. مراسلة شبكة CDN .. أرجنتينية .. هل جئت هنا فى مهمة تتعلق بالعمل ؟ »

ابتسمت وقالت فى شىء من العصبية :

ـ « السياحة .. لا أكثر ولا أقل .. قيل لى إن اليهـود فكروا فى بلادنا كوطن قومى أولاً .. »

قال ضاحكًا :

ـ « سوف ترين أننا صنعنا جنتنا هنا .. »

كانت عصبيتها تزداد من دقيقة لأخرى ، خاصة أنهـا المرة الأولى التى تحملها (فانتازيا) إلى هنا . إلـى مطـار (بن جوريون) شخصيًا .. وكانت الكتابة العبرية فـى كل مكان تثير أعصابها ، فقد تعـودت عبر سنين من الكراهيـة أن تراها كأنها أقدام عنكبوت .. مجرد شـىء يثير التقزز والقشعريرة .

لا تخافى يا (عبير) .. أنت لا تمتين للعرب بصلة . أنت أرجنتينية .. يجب أن تتذكرى هذا .. فلتلغى جانب الاشمئزاز هذا من مشاعرك ..

المهم أن يكون (سلمان) بانتظارك .. لن تستطيعى أن تتحركى خطوة واحدة من دونه ..

★ ★ ★

انطلقت السيارة متجهة إلى (رام الله) ..

لم تتبادل كلمات كثيرة مع (سلمان) سوى عبارات التحية .. ومنذ ذلك الحين ظلت صامتة .. كان يتحاشى الإجابة عن أية أسئلة .. وقررت هى أن تتحاشى السؤال ..

هناك عدة نقاط تفتيش بالطبع .. وكان الجنود الإسرائيليون ينظرون لها فى شك وفضول وهم يتفقدون الأوراق .. لكنهم فى كل مرة كانوا يسمحون للسيارة بالمرور ..

فلسطين أخيرًا ! لم تكن قد زارتها من قبل ولم تتخيل كيف تبدو ، فيما عدا ما كونه خيالها من نشرات الأخبار .. كانت تعرف أن فانتازيا لا تعبر عن حقائق الأشياء ولكن تعبر عن تصورها الخاص لهذه الأمور .. لهذا راحت

تتساءل عن نسبة الحقيقة فى هذا كله .. مثلاً هل تفصل مطار (بن جوريون) أربع ساعات عن (رام الله) ؟ لا تعرف .. لكن خيالها جعل الأمر كذلك ..

هل نقاط التفتيش بهذا الشكل ؟ هل الطرق بهذا المنظر ؟ لا تعرف .. وتمنت لو ترى هذه الأرض العزيزة مرة أخرى فى عالم الواقع ..

عندما ترجلت من السيارة اقتادها (سلمان) عبر طرقات متعرّجة يلعب فيها بعض الأطفال .. أطفال رائعو الجمال يرمقونها بعيونهم الواسعة ..

فى النهاية ترى تلك اللافتات التى تدين العدوان الإسرائيلى وتظهر شارون وقد علق شارة النازية على ذراعه أو رسم له شارب (هتلر). كانت العبارات على اللافتات مكتوبة بالفرنسية أو الإنجليزية.

وهناك وسط الأطفال وفوق ماسورة صرف غير مستخدمة جلست مجموعة من الشباب والشابات .. إنهم غربيون كما هو واضح من الشعر الأشقر ولون البشرة ، لكنهم يربطون الكوفية الفلسطينية الشهيرة على أكتافهم .. كانوا يداعبون الأطفال الفلسطينيين ويضحكون ..

بالفرنسية قال (سلمان) للشباب فى مرح :

- « هذه (ماريا) .. أرجنتينية .. » وأشار للشباب « هؤلاء هم أصدقاء العرب الذين جاءوا من بلادهم كى يدينوا الاحتلال الإسرائيلى .. وإنهم ليلقون أشد العنت من السلطات هنا ، ويرغمون على نزع ثيابهم كاملة فى المطارات ونقاط التفتيش ، لكنهم مصممون على أن يؤدوا رسالتهم .. »

صافحها بعض الشباب فى حماس .. وهتف أحدهم :

- « يوشك هذا المعسكر أن يتحول إلى الفلامنكية .. لدينا ثلاثة أسبان وأرجنتينى آخر .. »

تساءلت فتاة بدينة زرقاء العينين :

- « صحيح .. أين الأرجنتينى ؟ »

- « أين (ريكاردو) ؟ »

أرجنتينى ؟

صحيح .. أين هو ؟

تشم (عبير) رائحة السيجار أولاً .. ثم تراه .. يخرج من بوابة مدرسة أطفال على بعد عشرين مترًا .. إنه هو .. صحيح أنه قص شعره وأزال لحيته لكن العينين

لا تكذبان .. عيناه القويتان هما هما ، لكن فيهما حيوية ونشاطًا عارمين .. كأنه ولد من جديد ..

الصورة ذكرتها نوعًا بـ (جيفارا) الأصلي عندما كان متنكرًا كرجل أعمال يزور الكونغو .. طبعًا كان منظره معروفًا في كل أرجاء الأرض ، لذا أزال لحيته ووضع العوينات وحلق شعر رأسه ليبدو كأن الصلع قد زحف على مقدمته .. نفس التنكر يتكرر هنا تقريبًا .. لكن لا يقدر تنكر على خداعها هي ..

لقد أتقن خطته .. إن البلاد تعج بناشطي السلام ، فما أسهل أن يذوب وسطهم كناشط لاتيني آخر ..

لم يكن يرتدي تلك الثياب شبه العسكرية بل يلبس قميصًا شبابيًا وسروالاً من نوع (الجينز) .. مما جعل منظره غريبًا .. ثمة أشخاص يكتملون في ثياب بعينها فلا تتخيل منظرهم في ثياب أخرى .. مثل عمدة القرية الذي يُرغم على ارتداء بذلة أو أمها لو لبست ثوبًا قصيرًا .. (جيفارا) من دون بزة عسكرية وبيريه يبدو سخيفًا نوعًا ..

ـ « (ماريا) ! ! »

كذا هتف وركض نحوها فاتحًا ذراعيه ..

« لا تلمسنى .. هذه مكافأتى الوحيدة ! »

تذكر هذه العبارة فى اللحظة الأخيرة فتراجع وصافحها ..

ثم همس ، وهو يدنو منها :

- « أرجو أن تكونى قد وجدت (سلمان) بسهولة .. لقد طلبت منه أن ينتظرك مهما تأخرت .. ما كنت لتجدينى من دون عونه .. »

- « إنه رجل شهم .. »

- « كل من يعملون معى رائعون ومحل ثقة .. »

كانت هى قد قامت بالخطوة الأولى فى البحث عنه .. لقد طلبت من صديقة أرجنتينية لها تعمل فى إسرائيل أن تفتش عن وافد أرجنتينى جديد .. وافد يدخن السيجار ويعانى الربو .. وافد يتكلم عن الإمبريالية وثورات الشعوب ويحاول أن يجمع الرجال حوله ..

كانت هذه هى الخطوة الأولى . الخطوة الثانية قام هو بها عندما أبلغها أنه سيرتب لها كل شىء إذا جاءت إلى إسرائيل ..

وهكذا تم اللقاء بعد أربعة أشهر .. وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما ....

قال لها باسمًا :

ـ « المخابرات المركزية لا تقدر على العثور على مهما حاولت ، بينما أنت استطعت هذا .. »

ـ « لأنى أعرف طريقة تفكيرك .. أين يمكن أن يوجد (سى عمارة) الذى غادر العراق ، إن لم يكن فى فلسطين ؟ كنت تكره إسرائيل كما كرهت (أمريكا) .. »

ـ « إنهما وجهان للعملة ذاتها .. العرب يتصورون أن إسرائيل دولة مدللة لدى الولايات المتحدة لا أكثر .. أنا كففت عن ذلك واعتبرتها جزءًا أصيلاً من الولايات المتحدة .. ولاية جديدة .. هذا يفسر أمورًا كثيرة ويسهل التعامل معها .. لا يمكن أن تتخلى أمريكا عن إسرائيل إلا لو تخلت عن أوهايو أو كاليفورنيا .. دعك من أن النشأة واحدة وهذا يحرك أسباب الحنين لدى الأمريكيين .. هم قاموا على جثث الهنود الحمر ، وإسرائيل تحاول القيام على جثث الفلسطينيين .. »

ثم طوّح بالسيجار ، وقال فى مرح :

ـ « سوف تظفرين بالراحة وحمام دافئ فى بيت صديق عربى .. ثم أحكى لك عما أفعله هنا .. »

* * *

١٤ ـ بداية جديدة ..

نبت الياسمين والريحان فى كل مكان .. عذوبة البيت الفلسطينى كما تصورتها دومًا .. صورة (جيفارا) على أكثر من جدار .. الغريب أنك تجد صورة التشى إلى جانب بعض الآيات القرآنية الموضوعة فى إطار ذهبى ، وصورة القبة الخضراء .. هذا الخليط ممكن إذن وليس مستحيلاً ..

قال لها الأب وهو رجل فى الخمسين كث الشارب أصلع الرأس يدعى (زياد) :

ـ « كنت أنا شابًا عندما بدأت منظمة (فتح) عملياتها وبدأ الناس يسمعون عنها .. بالنسبة لنا جميعًا كان (جيفارا) أسطورة والرمز الذى يقودنا .. قبل إعلان خبر موته كان شاب يدعى (مازن جودت أبو غزالة) يخوض معركة فى منطقة (طوباس) استمرت ثلاثة أيام .. وقد فجر نفسه فى الإسرائيليين عندما أوشك على السقوط فى قبضتهم .. هذا الفتى كان من تلاميذ (جيفارا) ولم يدر أن أستاذه مات قبله بيومين .. لقد ألهم (جيفارا) جيلاً كاملاً .. »

سألته وهى تتحسس مواضع كلماتها :

ـ « هل تعرف ذلك الرجل (ريكاردو) ؟ »

ـ « قبل شهر لم أكن أعرف عنه حرفًا .. إنه صديق أرجنتينى مثل (جيفارا) وهو يتكلم عنه طيلة الوقت .. لقد راق لى هذا .. »

كان الابن شابًا ملتحيًا أقرب فى الميول إلى المقاومة الإسلامية .. هذا منطقى .. الأب من جيل الثورة ومكافحة الإمبريالية ، والابن يميل لـ (حماس) وإن لم يرفض ميل أبيه الواضح لجيفارا .. هذا يفسر اجتماع صور (جيفارا) مع صور القبة الخضراء .. أما الأم فكانت امرأة فلسطينية طيبة تذكرها بأمها هى ذاتها .. وتأكدت من ذلك عندما قالت لها المرأة فى لوعة :

ـ « أنت نحيلة جدًا .. ألا تأكلين جيدًا ؟ كيف لفتاة حلوة مثلك أن تظل كل هذا بلا زواج ؟ »

ضيفة على هذه الأسرة الفقيرة الطيبة جلست على الأرض فى جلباب عربى مزركش تتناول المنسف معهم . إن صديقة (ريكاردو) صديقتهم بالتأكيد ..

تشرب الشاى ثم تدعوها الأم لساعات من الراحة فى فراش أعدته لها ..

إنها أول ليلة تمضيها فى فلسطين حتى لو كانت فلسطين (فانتازيا) ..

* * *

فى الصباح دق الباب ..

كان القادم هو (ريكاردو) أو التشى نفسه ..

يدخل على الفور بلا حرج ولا مقدمات كأن هذا بيته ..

رحب به الأب فجلس على الأرض وأشعل السيجار الشهير ، ثم بدأ حوارًا بالإسبانية معها حتى لا يتابع أحد ما يقال :

- « يبدو أن هذه البلاد ستروق لى .. إن أعضاء حركة فتح كلهم يعتبرون أنفسهم أبناء (جيفارا) .. فى ذلك العصر الذهبى قام يابانيان بعملية انتحارية من أجل الفلسطينيين فى أوروبا فى مكتب شركة العال ، متجاوزين بذلك حدود الجنسية .. وكان مسلسل خطف الطائرات فى ذروته .. صورة التشى فى كل بيت من

بيوت هؤلاء .. صحيح أنهم تقدموا فى العمر ، لكن عالمهم يناسبنى .. »

قالت (عبير) محاولة ألا تبدو كغراب البين :

ـ « لكن الأمر ليس بهذه السهولة .. فى العراق هناك حالة عامة من اللامركزية والفوضى ، لكن هنا سوف تصطدم بالسلطة الفلسطينية أو الحكومة الإسرائيلية .. البلاد صغيرة غير مترامية الأطراف والحركة عسيرة .. دعك من أنك ستواجه ذات المشكلة التى واجهتها فى العراق .. أيديولوجيتك لم تعد تصلح ، والمقاومة الوحيدة الفعالة هنا دينية .. »

ـ « ومن قال إن مهمتى سهلة ؟ »

عندما جاءت الظهيرة اصطحبها إلى المدرسة القديمة .. هناك كان نحو عشرة من الشباب الفلسطينى يجتمعون فى الفناء .. لم تكن معهم أسلحة .. لكنهم كانوا يعاملون الرجل باحترام بالغ ..

قال بالعربية لها وهو يشير لهم :

ـ « هذا (راسم) .. هذا (محمد) .. هذا (إياد) .. هذا (عبد الله) .. »

بالطبع كانت قد نسيت الأسماء كلها عندما وصلت إلى الاسم الرابع .. لكنها راحت تهز رأسها محيية .. كانت عيونهم تلمع بالعزيمة والتصميم كأبطال القصص ..

عندما قدم العشرة قال لهم وهو يشير لها :

ـ « (ماريا جونزاليس) .. أرجنتينية مثلى .. مراسلة شبكة CDN .. »

قال أحدهم ممازحًا :

ـ « لكن ليس معك مصور ولا كاميرا .. »

قالت فى شىء من الحرج :

ـ « لم آت لمهمة رسمية .. قل إننى هنا للسياحة .. »

ـ « هذا ما يقولونه للإسرائيليين .. »

ـ « كنت أريد السؤال عن شىء مشابه .. ليس بينكم واحد مسلح .. »

قال الفتى الذى عرفتَ أن اسمه (عبْد الله) :

ـ « نحن فى مرحلة التثقيف الثورى كما يقول (ريكاردو) .. لن يسمح لنا بحمل سلاح إلا بعد أن يدرك أننا صرنا نعرف ما نفعله .. بعدها يبدأ التدريب على السلاح ثم ننطلق .. »

ـ « طريقكم شاق وطويل .. طويل أكثر من اللازم .. »

أخرج (جيفارا) نصف سيجار من جيبه ، وقال وهو يشعله :

ـ « لقد اعتدت هذا .. لاحظى أنك لم ترى ما قمت به فى العراق كى أصنع نلك الجيش الصغير .. هذه هى نصف المتعة .. أن يتحول الشباب العابث إلى جنود .. »

ـ « ومن أين تنوى الحصول على سلاح ؟ »

ـ « أرخص وأسهل طريقة هى شراؤه من الإسرائيليين.. لاحظى أن لنا أصدقاء كثيرين فى (فتح) وهم يعرفون مسالك بلدهم وأساليب التعامل مع هؤلاء القوم .. »

ثم أخرج كتيبًا له غلاف أحمر ويماثل حجمه نصف هذا الكتيب الذى بين يديك الآن .. وجلس على رمال الفناء وقال للشباب :

ـ « افتحوا كتبكم .. »

أدركت دون جهد عنوان هذا الكتيب .. إنه تعليمات (ماو تسى تونج) .. لقد كان (جيفارا) يحترم الصينيين ، وبالذات (ماو تسى تونج) .. وقد درس أفكاره دراسة مدققة .. والحقيقة التى لا يعلمها كثيرون هى أن الصينيين سبب وجود هذه النسخة الجينية فى عالمنا ..

أخرج كل شاب كتيبًا مماثلاً من حقيبته .. بدا لـ (عبير) أن التاريخ عاد للوراء ثلاثين عامًا .. مستحيل أن ترى هذا المشهد فى القرن الواحد والعشرين .. لكنه حقيقى ..

وهكذا جلست كما تفعل فى كل مرة تقاوم النعاس وتصغى ..

* * *

تمر الأيام .

وتبدأ العمليات غريبة الطابع التى تستعمل فيها أساليب عتيقة لكنها فعالة ..

كتبت الصحف الإسرائيلية عن هذه العمليات التى لم تتبنها أية جهة ، وبدأ ذلك الهاجس الأمنى من جديد .. العمليات ذات طابع (فتحوى) لا شك فيه ، لكن الكوادر المعروفة من (فتح) لم تنفذها ..

فقط تذكر ضابط مخابرات بارع يدعى (أموتاى ياريف) شيئا مماثلا .. شيئا سمعه فى تقارير الأمريكيين التى تأتى من العراق يوميًا .. تذكر كلامًا غريبًا عن رجل يتصرف مثل (جيفارا) وينفذ أساليبه ، مع كلام أعجب عن تجربة استنساخ تمت بخبرات صينية فى أوائل السبعينات ..

- « استنساخ ؟.. صين ؟.. سبعينات ؟ »

بدا الأمر جنونًا مطبقًا لكل من سمع عنه ، لكن (ياريف) كان ذئبًا .. بتلك النظرة الوحشية على وجهه والضحكة الشيطانية ، مع طريقته فى التظاهر باللطف والرقة إلى درجة الأنوثة .. ترى هذا كله فتدرك أنه ليس بالخصم السهل ..

كان (ياريف) ذئبًا لهذا لم يسخر من الفكرة كما فعل الآخرون .. أرسل عملاءه يتبصصون ويراقبون .. واتصل بالأمريكيين فى العراق ، أولئك الذين عملوا مع رجل مخابرات اسمه (مورتون) ..

وكانت التقارير كلها تتحدث عن مجموعة من الرجال يقودها رجل أرجنتينى يدخن السيجار بكثافة ، وقد كاد الربو يقضى عليه .. لقد بدأ فى تسليح هذه المجموعة الصغيرة وهو لا يكف عن التنقل من قرية لأخرى يدعو لحركته ..

قالوا له فى (الشين بيت) :

ـ « نحن نتكلم إذن عن مجنون يقلد (جيفارا) .. »

قال لهم :

ـ « وأنا أتكلم عن (جيفارا) نفسه وقد ظهر فى إسرائيل ! »

★ ★ ★

١٥ ـ نهاية جديدة ..

البلدة التى اختارها للمبيت كانت تدعى (كفر الهجيرة) .. قرية صغيرة قرب (رام الله) ولد فيها واحد من رجاله ، وكان يعرف مسالكها وأهلها جيدًا ..

هكذا للمرة الألف وجدت (عبير) أن عليها قضاء الليل فى مدرسة مهجورة صغيرة .. إن الليلة التى تقضيها بين أربعة جدران سليمة أو فى حظيرة هى ليلة لا يمكن أن تحلم بها ..

جلس الرجال المنهكون على الأرض وخلع أكثرهم حذاءه مما جعل الرائحة غير محببة ، وقال (جيفارا) وهو يتأمل الأحذية :

ـ « أحذيتهم بدأت تبلى .. ذكرينى بأن ننشئ مصنع أحذية فى أقرب فرصة .. »

ـ « سأتذكر هذا .. »

لم يتخلص بعد من عقدة الحذاء المتين .. يحتاج الأمر لمحلل نفسى أكثر منه إلى خبير عسكرى ..

ساد الصمت فيما عدا صوت القضم والمضغ .. الرجال يتناولون العشاء .. لابد من الشاى وبالطبع يمكن تسخينه هذه المرة لأننا لسنا بين الأطلال ..

سألته وهى ترشف كوب الشاى الورقى الخاص بها :

ـ « حتى هذه اللحظة لم يتجاوز عملك الانقضاض على نقاط تفتيش .. غارة جيدة .. انسحاب منظم .. تلغيم جثث القتلى .. لكن ما هى استراتيجيتك ؟ »

قال وهو يشعل السيجار :

ـ « نحن بقعة نار صغيرة . استراتيجيتى هى أن تنتشر البقع فى أكثر من موضع فى فلسطين .. آلاف البقع .. هذا حريق لا يقدر الإسرائيليون على السيطرة عليه .. يجب أن يتحرك عرب فلسطين لأن هذه هى الطريقة الوحيدة لتجاوز الجدار العازل .. يجب أن نتعلم حفر الأنفاق وأن يدخل من هم خارج الجدار العازل إلى الداخل الإسرائيلى .. عملية هنا وعملية هناك .. إن استراتيجيتى هى نشر الثورة فى كل مكان .. »

ـ « وهل هذا كاف ؟ »

- « سوف يرغم إسرائيل على الاعتراف بحقوق الفلسطينيين .. سيصير وضعهم أفضل .. »

كانت تشعر أن الأمر ليس بهذه السهولة .. هذا الوافد على البلاد منذ أشهر يعتقد أنه قادر على تحقيق ما تجاهد منظمات فلسطينية عدة للقيام به منذ ستين عامًا .. إنه حالم كبير كما كان دائمًا .. ومن الواضح أنه لن يتوقف أو يفيق ..

لهذا يبدو أحيانًا كأنه ساذج كطفل .. إنه لا يعى جيدًا حقيقة ما يدور من حوله ولا حقائق القوى ..

وتكورت على نفسها فى الركن وتثاءبت كالأسد وبدأت تغيب فى عالم النعاس ، عندما سمعت صوت الخطوات ..

فتحت عينيها فوجدت أنهم مطوقون بالجنود الإسرائيليين !

* * *

مد (جيفارا) يده إلى بندقيته الآلية .. من الغريب أن أيًا من الجنود لم يحاول منعه .. صوبها إليهم وضغط الزناد ..

لكن الموت لم يخرج من الفوهة .. خرج صوت غريب يقول (بلوف بلوف بلوف) .. نظر للفوهة فى اشمئزاز ثم

ألقى بالبندقية على الأرض ، ومد يده إلى حزامه ليخرج المسدس ، لكن طلقة دوت فى أرجاء المكان .. ورأت (عبير) التشى ينظر ليده غير مصدق .. الدم يسيل منها كالمطر ..

قال أحد الجنود بالعربية (الإسرائيلية) التى تسبب الاشمئزاز لمن يسمعها :

ـ « لا تقاوم ! إن طلقات أسلحتكم (فشنك) كلها .. »

رفع الرجال العشرة أيديهم لأعلى فأمرهم جندى إسرائيلى بأن يضعوها خلف الظهور ، ثم دار عليهم يربط معاصمهم بحبال من البلاستيك .. فقط ظلت (عبير) و(التشى) واقفين بلا قيود ..

ـ « خذوهم إلى السيارة .. »

همست (عبير) فى أذن (جيفارا) :

ـ « ماذا حدث ؟ »

قال وهو يضغط على أسنانه من فرط الألم :

ـ « خيانة كالعادة .. هناك عميل لهم بين رجالنا ، وقد بدل ذخيرتنا ونحن نيام .. »

ـ « من هو ؟ »

ـ « لن نعرفه .. إنه أحد هؤلاء العشرة المقيدين .. لن يفضحوه ؛ لأنه قد يصلح مرة أخرى .. »

كان صف الرجال يتحرك إلى الخارج ، بينما أمر أحد انجنود (عبير) و(جيفارا) بأن يبقيا حيث هما .. وفى هذه المرة قام بتقييدهما بهذه الحبال اللدنة الأقرب إلى السلك الغليظ ..

وفجأة ودون سابق إنذار انهال الرجال على التشى ركلاً ولكمًا .. حتى أنه سقط على الأرض والدم يسيل من أسنانه .. صرخت (عبير) غير مصدقة :

ـ « أنتم وحوش ! ماذا تخشون من رجل مقيد جريح ؟ »

لكنها العادة الصهيونية الراسخة .. لماذا أؤذيك ؟ لأنك أضعف من أن تؤذينى .. هذا سبب كاف ..

ولكن التشى لم يمنحهم أى بهجة أو رضا .. كان يتلقى الضربات وهو يبتسم .. ونظرة التحدى فى عينيه لم تتزحزح ..

شعرت بأن هذا الموقف مألوف .. متى حدث هذا ؟

ثمة شخص يدخل من بـاب القاعـة فتوقف الحفل .. ميزت (عبير) السترة الخاكية والرأس العارى والبييريـه الذى يضعونه دومًا تحت (سبلايت) السترة .. علامة رجال جيش الدفاع ، حتى لن أى ممثل مصرى يريد تقليد مجند إسرائيلى يبدأ قبل كل شىء بوضع البيريه هناك ..

الرّجل يمشى بثقة وتؤدة .. كل شىء يدل على أنـه زعيم هؤلاء .. يخرج من الظل ليصير فى نـور الشمس .. يضع جهاز لاسلكى على أذنه ويتكلم :

ـ « نعم .. نعم . قل لهم إن بابا معنا .. وهو مريض .. »

ينزع نظارته السوداء ويرمق (جيفـارا) و(عبير) للحظة ثم يصيح :

ـ « إما أن تنكرك بارع جدًا وإما أن هـذه الحيوانـات أساءت معاملتك أكثر من اللازم .. »

ثم ساعده على الجلوس ، وبكثير من الحنان راح ينظف جراحه بمنديل ورقى .. ثم قال :

ـ « فكرة حلق اللحية والعوينات ممتازة .. لدينا فـى (الشين بيت) عدة صور لـك ، وقد عالجناها حسب

الاحتمالات المختلفة .. إن برنامج (أدوب فوتوشوب) برنامج رائع حقًا .. لدى صورة لك وأنت أشقر أزرق العينين .. وصورة وأنت تتنكر كمطربى الروك .. لكن وجهك الحالى ليس ضمن الوجوه التى لدينا .. »

ثم انحنى فى احترام وقال :

ـ « يمكنك أن تدعونى (ياريف) .. (أموتاى ياريف) .. لا قيمة للأسماء الحقيقية فى عالمنا .. خادمك المطيع صاحب فكرة استدراجك إلى هذه القرية .. عميلنا قام بالتأكد من أنك لن تقتل إسرائيليًا آخر .. يجب أن تعرف أننا لن نسمح بوجود (جيفارا) هنا فى أرضنا .. إن الانتحاريين الفلسطينيين جعلوا الحياة معقدة بما يكفى فلا ينقصنا ثائر من أمريكا اللاتينية .. لاحظ أننا أكثر براعة وقدرة من الأمريكيين والسبب أنهم نسوا فنون الاحتلال .. »

ومد يده يعبث فى جيب التشى حتى أخرج نصف سيجار ، وقال باسمًا :

ـ « سيجار كذلك ! يبدو أنك ملتزم بالقواعد حرفيًا .. »

ودسه بين شفتى الرجل ثم أشعله له .. راح الدخان يتصاعد كثيفا من منخرى التنين المقيد ..

قال (ياريف) وهو ينفخ عود الثقاب :

ـ « لأسباب تتعلق بالعدالة الشعرية خطر لى أنه من اللطيف أن أدعوك إلى هذه القرية .. (كفر الهجيرة) .. هل لاحظت الاسم ؟ »

هتفت (عبير) فى ذهول ، وقد فهمت :

ـ « (الهجيرة) .. (لا هيجيرا) .. »

قال الرجل فى لطف :

ـ « نعم .. أنت ذكية يا صغيرتى .. لاحظى تشابه الاسمين .. وهذه مدرسة خالية .. »

صاحت فى غضب :

ـ « إنه مواطن أرجنتينى .. ليس بوسعك أن تؤذيه .. »

ـ « نعم .. نعم .. المشاكل الدبلوماسية .. لهذا لن تكون هناك محاكمة .. للأسف لن تكون هناك محاكمة ولا تحقيقات .. سوف ننهى الأمر هنا والآن .. »

ـ « لن تنجو من هذا .. »

ـ « بالعكس .. سوف نفك قيوده وسوف يجدونه مقتولاً .. عندها نتهم (حماس) أو (الجهاد) .. إن خبر (العثور على جثة سائح أرجنتينى فى إسرائيل) لن يبدو غريبًا وسط هذا الجحيم .. »

ثم مد يده إلى حزامه وأخرج مسدسًا صوبه إلى رأس التشى ..

نظر له التشى فى ثبات والسيجار بين شفتيه وقال :

ـ « لا تفعل إلا بعد أن أنهض على قدمى .. هلم .. اقتلنى .. أنت فقط تقتل رجلاً .. »

انطلقت الرصاصة لتجد طريقها بسهولة وسط أنسجة الصدر الذى امتلأ بحب المظلومين وكراهية الظالمين .. وسقط التشى على الأرض ..

★ ★ ★

عينى عليه ساعة القضا

من غير رفاقه تودعه

يطلع أنينه للفضا

يزعق .. ولا مين يسمعه

يمكن صرخ من الألم

من لسعة النار فِ الحشا

يمكن ضحك .. أو ابتسم .. أو ارتعش .. أو انتشى

يمكن لفظ آخر نفس

كلمة وداع لاجل الجياع

يمكن وصيه .. للى حاضنين القضية

ف الصراع ..

★ ★ ★

صور كتير .. ملو الخيال

وألف مليون احتمال ..

لكـن أكيـد ..

أكيـد أكيـد

ولا جـدال ..

جيفارا مات موتة رجال ..

أحمد فؤاد نجم ١٩٦٨

* * *

قال (ياريف) للجنود الواقفين حوله :

ـ « أطلقوا الرصاص كما يحلو لكم ، لكن لا أريد طلقة فوق الخصر ! أريد أن يظل وجهه سليمًا ! »

وهكذا انطلق الرصاص .. كل رصاصة كانت تنفجر فى أعصاب (عبير) وقلبها وعقلها .. كانت تصرخ وتصرخ بينما الجثة تتلوى كأن لها حياتها الخاصة ..

عندما توقف إطلاق النار ، وعندما بدأ الدخان ينقشع وبدأت أذناها تسمعان ، نظرت بعينيها الدامعتين إلى (ياريف) فوجدته ينظر لها فى ثبات ، وقال :

ـ « معذرة يا صغيرتى .. أنت تقدرين موقفى .. لا أحد يحقد عليك لكننا لا نريد شهودًا .. »

كان عليها أن تتوقع هذا ..

يرفع المسدس نحو رأسها .. تلك النظرة الحنون الرقيقة تثير جنونها .. لا يجب أن يكون هذا آخر مشهد تراه على وجه الأرض .. لا يجب ..

هنا سمعت من يصيح :

ـ « توقف ! »

ثم شعرت بيد توضع على كتفها ..

يد المرشد .. إنها تعرفها من بين ألف يد ..

يتراجع (ياريف) ومعه يتراجع الجنود الإسرائيليون ليفسحوا المكان وقد بدا بوضوح إنهم لا يتمنون أن ينفذوا الأمر .. لكن لا مجال للتفاوض هنا ..

ـ « أنت تأتى فى الوقت المناسب دائمًا .. »

ـ « لن أترك الاستمتاع فى (فانتازيا) يقضى عليك .. »

ثم يقول المرشد وهو يفك قيدها :

ـ « أعتقد أنك اكتفيت بهذا القدر .. التشى قد لاقى نهايته من جديد .. لكن نهايته مكتوبة منذ اللحظة التى جاء فيها العالم .. إنه الحالم الأخير فى عالم يفترس

الأحلام .. إنه لم يغير الكثير فى الواقع لكن أثره لن يمحى من النفوس .. »

نظرت إلى جثته الغارقة فى الدم ، وقالت دامعة :

- « هل نتركه هنا ؟ »

- « بالتأكيد .. أعتقد أنهم سيلتقطون له بعض الصور .. هيا بنا .. »

قالت وهى تتجه معه إلى الباب دون أن تنظر للوراء :

- « كم مرة جئت أنت لى وأنا أركع باكية جوار جثة ؟ لقد صار هذا مملاً .. (سيبويه) ثم (جيفارا) .. (هانيبال) .. إلخ .. ألن ينتهى هذا ؟ »

- « عندما تكفين أنت عن اختيار أبطال لا تكتمل بطولتهم إلا بالوفاة .. »

ترى الشمس فى الخارج وترى أرض فلسطين ..

لكنها ترى كذلك قطار (فانتازيا) يستعد للحركة ..

★ ★ ★

يـا شـــغالين ومحـــرومين ..

ومسلســلين رجليــن وراس ..

خلاص خلاص .. ما لكوش خلاص

غيــر بالبنـــادق والرصـــاص ..

دا منطــق العصــر الســعيد

عصـــر الزنـــوج والأمـــريكان

الكلمـــة للنــــار والحـديـد ..

والعـــدل أخـــرس أو جبـــان ..

أحمد فؤاد نجم ١٩٦٨

★ ★ ★

فى القصة القادمة تجد (عبير) نفسها بين ساحر وأديب .. ساحر لا يؤمن بالسحر وأديب يؤمن بـه .. وكلا الطرفين يحاول إقناع الآخر برأيه .. إنها قصة غريبة لكنها حقيقية ..

تمت بحمد الله